الإسراء والمعراج

د. محمد محمد أبو شهبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القدير فلا يُعجِزه شيءٌ، العليم فلا تخفي عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء، والصَّلاة والسَّلام على خاتم أنبيائه وصَفوة رسُلِه المؤيَّد بالمعجزات الباهرات، وعلى آله وصَحابته ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ.

أمَّا بعدُ:

فهذه رسالةٌ في الإسراء والمعراج بيَّنتُ فيها حقيقتهما، وإمكانهما، وقصَّتهما، مُستَقاة من أوثق المصادر وأصحِّ الرِّوايات.

وقد قدَّمتُ بين يدي البحثِ خُلاصةً في حاجة البشَر إلى الرسل وتأييد الله - سبحانه - لهم بالآيات البيِّنات، ومُلاءمتها لما اشتهر في أعْصارهم، وما خُصَّ به نبيُّنا محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - من المعجزات المتكاثِرة، ولا سيَّما المعجزة العظمى وهي القرآن الكريم، ثم أخذت في تجلية الموضوع الذي إليه قصَدتُ، وما يتَّصل به من الكشْف عن حِكمةٍ، أو تزييف شُبهةٍ، أو نقْد رأي.

وقد تحاشَيْتُ كلَّ ما لا يدلُّ عليه نقلٌ صحيح؛ إذ في الزُّبد ما يُغنِي عن المَخِيض، واللهَ أسألُ أنْ يجعَلَ عملي خالصًا لوجهه، وأنْ يُجنِّبني الشَّطط في القول، والعثار في الرأي، إنَّه نعمَ المولى، ونعمَ المعين.

د. محمد أبو شهبة

5 من جمادى الآخرة 1384هـ

1964/10/12م

* * * * *

الفصل الأول
حاجة البشَر إلى الرُّسل

خلَق الله النَّوع الإنساني، وكرَّمه وفضَّله على كثيرٍ من خلقه، وأعدَّه لعمارة الكَوْنِ، والانتفاع بما فيه، ووهَبَه لطيفةً ربانيَّة وهي العقلُ، وبه شرُف الإنسان، وبه صلَح للاستِخلاف في الأرض، والاهتداء إلى طُرُقِ الانتفاع بها، واستغلال ما فيها.

وكلُّ فردٍ من أفراد هذا النَّوْعِ الإنساني في حاجةٍ إلى الآخَر، فالصانع محتاجٌ إلى الزارع، والزارع محتاجٌ إلى الصانع، وكلٌّ منهما في حاجةٍ إلى التاجر، وصاحِبُ المال محتاجٌ إلى العامل، والعامل محتاجٌ إلى صاحب المال، والجاهل في حاجةٍ إلى العالم، والضالُّ في حاجةٍ إلى الهادي والمرشد.

بل الجماعات والشُّعوب لا تستَغنِي جماعةٌ عن جماعة، ولا شعبٌ عن شعب في عِلمه وصِناعته، ولا في موارده الاقتصاديَّة.

وهكذا شاءَ الحقُّ - تبارك وتعالى - أنْ يكون النَّوْعُ البشري كأسرةٍ واحدة؛ كي تتحقَّق المصلحة العامَّة، ويحصل الارتفاق بين الناس على خير ما يكون، وصدَق الله حيث يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]، وصدق الشاعر العربي:

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ = بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

وقديمًا قال أحد فلاسفة اليونان: "الإنسان مدني بالطبع".

ويكفيك دليلاً على أنَّ الإنسان لا يعيشُ إلا في جماعةٍ ما وهَبَه الله - سبحانه - من آلة منطق "اللسان" فإنَّه خُلِقَ لتصوير المعاني في الأَلْفاظ، وتأليف العبارات الدالَّة على ما في النفس؛ وذلك لاشتِداد حاجة هذا النوع إلى التفاهُم بعضه مع بعض، وأنَّ الإنسان لا يمكن أنْ يعيشَ وينتَفِع بخيرات الأرض وهو بمعزِل عن الناس جميعًا.

وحاجة الأفراد بعضهم إلى بعض تزيدُ وتكثُر كلَّما كثُرتْ مطالب العيش، وتشابَكت المصالح، وزاد التمدُّن، واستَبحَر العمران، وفي تلك الحالات تمتدُّ الحاجات من الأسرة إلى القبيلة، ثم إلى الأمَّة ثم إلى أفراد النَّوع الإنساني بأسْرِه.

الإنسان ليس عقلاً مجرَّدًا:

لو أنَّ الإنسان خُلِقَ عاقلاً مجرَّدًا عن الأهواء والشَّهوات لاستقامَتِ الأمور، ولصلحت الأحوال، ولأمكَنَ للبشر أنْ يعيشوا أسرةً متحابَّة متآلِفة متعاونة، ولكنَّ هذا النوع رُكِّبَ فيه إلى جانب القوَّةِ العاقلة القوَّةُ الشهوانيَّة، والقوَّة الغضبيَّة.

والقوَّة الشهوانيَّة قد تخرُج عن حدِّ الاعتدال؛ فتَحمِل صاحبها على الانهماك في الشَّهوات، والحِرص على اكتساب الأموال من أيِّ جهةٍ كانت، وبأيَّة وسيلةٍ تيسَّرت، والإفراط في طلَب المحبوب والمرغوب فيه من غير طُرُقِه المشروعة.

وكذلك القوَّة الغضبيَّة حينما تجاوز حدَّ الاعتِدال تحمِل صاحبها على سفْك الدماء، والغدْر والظُّلم، والتفنُّن في أنواع الشرِّ والإيذاء، ولهاتين القوتَيْن - الشهوانيَّة والغضبيَّة - خطرُهما؛ لشدَّة التجاوب بينهما وبين النفس الأمَّارة بالسُّوء، وتغلُّبهما على القوَّة العاقلة في كثيرٍ من الأحيان، ومن ثَمَّ يكون اختِلاط الأفراد بعضهم ببعضٍ مَدْعاةً إلى الجور والظلم، وسفْك الدِّماء، وانتهاك الأعراض وسلْب الأموال... إلى غير ذلك من المحظورات، إذًا فالبشر في حاجةٍ ماسَّة إلى شريعةٍ رادعةٍ زاجرة تُبيِّن الحقَّ من الباطل، والخيرَ من الشر، والهدى من الضَّلال، وتكفل لهم السَّعادة في هذه الحياة الدنيا.

شعور الإنسان الفطري بحياةٍ أخرى:

هذا إلى أنَّ الإنسان بما أُوتِي من فكرٍ ونظر، وبما مُنِحَ من إلهامٍ يتوصَّل - على سبيل الإجمال - إلى أنَّ هناك حياةً أخرى وَراء هذه الحياة الدنيا، يسعَدُ فيها الإنسان أو يشقى، وأنَّ السعادة فيها أو الشقاوة مرتبطةٌ به قدَّم في دُنياه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشر، وصدَق الحقُّ - تبارك وتعالى - حيث يقول: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: 36]، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115].

والإنسان بما فُطِرَ عليه من حبٍّ للمعرفة والاستِطلاع في حاجةٍ ملحَّة إلى مَن يُفصِّل له أحوالَ هذه الحياة الأخرى، والوسيلة التي تُوصِله إلى الفوز بنَعِيمها، والنَّجاة من عَذابها؛ سَواء أكانت هذه الوسيلة اعتقادات، أم عبادات، أم معاملات، أم أخلاقيَّات.

فمَن يا ترى يمكن أنْ يَفِي بحاجة البشَر إلى تحقيق السعادتَيْن: الدنيويَّة والأخرويَّة؟

العقل لا يكفي وحده:

لا يمكن لحكيمٍ مهما سما وبلَغ من الرُّقيِّ والمعرفة أنْ يَضَعَ تشريعًا عامًّا يُحقِّق جميعَ ما يحتاجُ إليه البشَر في دُنياهم، ولا أنْ يُبيِّن بالتفصيل أحوالَ هذه الحياة الأخرى، والطريق إلى الفوز فيها؛ لأنَّها حياةٌ مُغيَّبة عنه، لا يحيطُ بها إلا علاَّم الغيوب، وهو الله - جلَّ جلالُه.

والنابغون من البشَر مهما كانوا فعِلمُهم قاصرٌ؛ فهم إنْ أحاطوا علمًا ببيئتهم فلن يعلَمُوا جميعَ البيئات، وإنْ أدرَكُوا ما يكونُ في زمنهم ممَّا يجلب نفعًا أو يدفع ضررًا فلن يُدرِكوا ما سيكون بعد زمنهم.

ثم هم إلى ذلك عرضةٌ لتغلُّب الأهواء والشَّهوات، والاستجابة للغرائز النفسيَّة، والوساوس الشيطانيَّة، والخضوع لسُلطان البيئة... إلى غير ذلك ممَّا يجعَل أحكامهم وقوانينهم عرضةً للطَّعن والتجريح.

لا يُمكِن أنْ يَفِي بهذا الغرض إلا التشريع السماوي:

وإذا كان العَقل البشري مهما سمَا وبلَغ من العِلم بمعزلٍ عن هذه المنزلة، وهي تحقيقُ السعادتَيْن: الدنيويَّة والأخرويَّة، فيتحتَّم بالضرورة أنْ يكونَ الواضع لهذا التشريع هو الله - سبحانه - الذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ خبرًا، وعَلِمَ ما كان وما يكون، ووسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وتنزَّه عن العبَث والسَّفَه، والهوى والشهوة، وصدَق الحقُّ - تبارك وتعالى - حيث أشار إلى ذلك بقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 115]، وقوله: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: 71].

الرسل مُبلِّغون عن ربهم:

وقد شاءَ الله - عزَّ شأنُه وجلَّت حِكمتُه - أنْ يكون المبلِّغ لهذا التشريع الإلهي السَّماوي فئة من البشر، وهم المصطفون الأخيار، وهم الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام - فالرسل هم هُداة البشريَّة وأُساتُها، وهم جمالها وكَمالها، ومنزلهم من البشريَّة بمنزلة الرُّوح من الجسَد، وهل يحيَى جسد بدون روح؟

مَن هم الرُّسُل؟

ورسُل الله فئةٌ ممتازة من البشَر قد صَفَتْ نُفُوسُهم، وسمَتْ فِطرتهم، وزكَتْ أصولهم، تعهَّدهم الله - سبحانه وتعالى - من الصِّغَر بالعناية والتأديب، ونشَّأهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وجعَل لهم استعدادًا خاصًّا استحقُّوا به أنْ يكونوا أهلاً لتلقِّي الوحي من ربِّهم بالذات أو بوساطة الملك أو الإلهام، وأنْ يبلغوه إلى مَن شاء الله أنْ يُبلِّغوه إليهم من البشر؛ كي تتحقَّق لهم سَعادة الدِّين والآخِرة.

وليست النبوَّة أمرًا يُكتَسب بالرياضات والمجاهدات، وإنما هي فَضْلٌ من الله يُؤتِيه مَن يَشاء من عِباده الذين أخلصَهُم لنفسه، واصطَفاهم لتَبلِيغ شَرائعه، وصدَق الله حيث يقول: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124].

وهؤلاء الرُّسُلُ يجبُ اتِّصافهم بما يُحقِّق المقصودَ من إرسالهم، ويدعو الناس إلى اتِّباعهم فيجب لهم:

(1) الصدق.

(2) وتبليغ ما أُمِرُوا به إلى الخلق.

(3) والفطانة.

(4) والأمانة أو العصمة؛ يَعنِي: عصمة ظَواهرهم وبَواطنهم عن كلِّ منهيٍّ.

(5) وسلامة أبدانهم عن كلِّ ما ينفر منهم النُّفوس.

ويستَحِيلُ عليهم الاتِّصاف بضدِّ هذه الصِّفات.

وبالكَمال في هذه الصِّفات امتازُوا عن بقيَّة أفراد النوع الإنساني، كما امتازوا بأنَّ أرواحهم قد أمدَّها الله بكمال العناية، فصَفَتْ ورقَتْ وقَوِيَتْ حتى صارت أهلاً لأنْ تسمع كلامَ الله وأنْ تشاهد الملك بصُورته الأصليَّة وتأخُذ عن الوحي.

وما عدا تلك الصفات فهم مُساوون لباقي أفْراد نَوعِهم فيَأكُلون، ويشرَبُون، وينامون، ويألَمُون، ويمرَضون أمراضًا غير مُنفِّرة، ويُصابون بأنواع البَلاء والأذَى من الأعداء، وقد يُقتَلون.

ولَمَّا اعتَرَض المشركون على النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - بقولهم كما حكى الله - سبحانه -: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا} [الفرقان: 7-8]، ردَّ عليهم مقالهم بقوله - سبحانه -: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان: 20].

وقد بيَّن الله لهم أنَّ أكْل الطعام والمشيَ في الأسواق دَيْدَنُ الرُّسل جميعًا، وأنَّه لا يُنافِي الرسالة، وقد حكى القرآن الكريم مقالةَ أقوامِ الرُّسل لهم بأنهم بَشَرٌ مثلهم، ورد

الرُّسل عليهم بتسليم بشريَّتهم إلاَّ أنَّ الله مَنَّ عليهم بالرسالة فقال - سبحانه -: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم: 9-11].

وهؤلاء الرُّسل مُؤيَّدون من الله - سبحانه وتعالى - بآياتٍ بيِّنات تُخالِف ما يكونُ في مجرَى العادة، ولا يستَطِيعها البشر مهما أُوتوا من قوَّةٍ، وهي ما تُعرَف بالمعجزات.

ما هي العجزة؟

المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة مقرونٌ بالتحدِّي صَراحةً أو ضِمنًا، يُجريه الله على يد مَن يدَّعي النبوَّة، فإذا قام إنسانٌ وادَّعَى النبوَّة وقال: الدليل على صِدقي أنْ يُجري - سبحانه - على يدي ما يُخالِف المألوف من عادته، ثم يتحدَّى الناس زرافات ووحدانًا أنْ يأتوا بمثْل ما أتى به، وفيهم الكثيرون ممَّن هم على شاكلته، ثم لم يكنْ منهم إلا العجز، وعدم الاستطاعة - فلا شكَّ أنَّ هذا دليلٌ قويٌّ وبرهان ساطِع على صِدقه، وأنَّ ما جاء به من عند الله - سبحانه.

والمعجزة في دلالتها على صِدق النبيِّ قائمةٌ مقام قول الله - سبحانه - فيما لو أسمعنا كلامَه: "صدَق عبدي فيما يُبلِّغ عنِّي".

فمتى ظهرت المعجزة على يد إنسان وقارَن ظهورها دعوى النبوَّة، عُلِمَ بالضرورة أنَّ الله ما أظهَرَها إلا تصديقًا لِمَن ظهرت على يده؛ لأنَّ من المحال أنْ يُؤيِّده الله وهو كاذبٌ؛ إذ تأييد الكاذب تصديقٌ له، وتصديقُ الكاذب كذبٌ، والكذب محالٌ على الله.

ومع وُضوح دلالتها على صِدق النبيِّ الذي ظهَرتْ على يدَيْه فقد قارَن حُصولها الإنْكار من بعض الناس عِنادًا ومُكابرة، ولو أنَّ كلَّ حقٍّ يظهَر يأخُذ به الناس جميعًا لما كان هناك خِلافٌ في الأرض، ولكان الناس أمَّة واحدة، ولكن طبيعة الناس على خِلاف هذا، وصدَق الله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253].

المعجزة ليست من المستحيلات العقليَّة:

والمعجزة ليست من قَبِيل المستحِيل العقلي، فإنَّ مخالفة السنن الكونيَّة المعروفة ممَّا لم يقمْ دليلٌ على استحالته فهي - وإن كانت مخالفة للعادة - داخلة في نطاق الممكنات العقليَّة.

وإذا كان الله - سبحانه - ربَط الأسباب بالمسبَّبات، وأوجد الكائنات بناموس قد يصلُ عِلمُنا إلى معرفته، فليس من المحال عليه - سبحانه - أنْ يضع نواميس خاصَّة بِخَوارق العادات يعرفها هو - سبحانه - غير أنَّنا لا نعرفها، ولكنَّنا نرى أثَرَها على يد مَن اختصَّه الله بفَضْلٍ منه ورحمة.

وإذا اعتقدنا أنَّ الله قادرٌ مختار لا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء سهُل علينا الإيمان بأنَّه لا يمتنع عليه أنْ يحدث الحادث على أيِّ هيئة، وتابعًا لأيِّ سبب إذا سبق في علمه أنَّه يحدثه كذلك، واقتضت الحكمة إيجاده على هذا النحو.

المعجزات ليست من صُنع الأنبياء:

والمعجزة نفحةٌ من نفحات الحق يُجرِيها الله - سبحانه - على يَدِ أحد أنبيائه، وليست من صُنعِه، وإنما هي من صُنع الله - تعالى - وليس أدل على ذلك من أنَّ موسى - عليه السلام - لَمَّا أراد الله أنْ يُعلمه معجزته الكبرى، وهي العصا ليَأنَس بها فانقَلبتْ حيَّة ولَّى خائِفًا، ولو كانت بصُنعِه وعِلمه لما خافَ؛ قال - تعالى - حاكيًا ذلك: {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} [النمل: 10]، أمَّا السَّحَرَة فلمَّا ألقوا حبالهم وعصيَّهم وصارت حيَّات تسعى لم يجفلوا منها؛ لأنها بصُنعهم، وهم أعلم الناس بحقيقة أمرها.

الفرق بين المعجزة والمخترعات:

أنَّ المعجزة ليست معروفةَ السبب من الخلق بخِلاف المُختَرعات العجيبة، فإنها لا تدخُل في نِطاق المعجِزات ولا تُقارِبها؛ إذ هي أمورٌ مبنيَّة على تجارب ونظريَّات داخلة تحتَ طاقة الإنسان وقُدرته، ومن عمَلِه وصُنعه، وهي جاريةٌ على السنن الكونيَّة المعروفة وليستْ خارجة عنها، وما سمعنا مخترعًا ادَّعى النبوَّة باختراعه؛ لأنَّه يعلَمُ أنَّه لو فعل وتحدَّى الناس فسرعان مَن يقوم من البشر، فيأتي بمثْل ما أتى به إنْ لم يكن أغرب منه، ويردُّ عليه دَعواه.

الفرق بين المعجزة والسِّحر:

أنَّ العجزة غير معروفة السبب العادي لنا بخِلاف السِّحر، فهو وإنْ خفي في الظاهر على كثيرٍ من الناس ممَّا يعلمه بعضهم، وله قواعد وأسباب يتوصَّل بها إليه، وكثيرٌ ممَّا نظنُّ أنَّه سحرٌ لا يعدو أنْ يكون خَيالاً وخفَّة يد وشعوذة، فكن على بيِّنة من ذلك، ولا يشكلنَّ عليك الأمر، فيلتبس الباطل بالحقِّ المبين، فشتَّان ما بين صُنع الله ربِّ العالين، وعمل الدجَّالين والمشعوذين والمبطلين.

الفرق بين العجزة والكرامة:

والأمر الخارق للعادة إنْ ظهَر على يد رجلٍ يدَّعي النبوَّة فهو المعجزة، وإنْ ظهر على يد رجلٍ صالح معروف به من غير أنْ يقترن بدعوى النبوَّة فهي الكرامة.

وأمَّا ما يظهَرُ من الغرائب والتخيُّلات على يد الرجل الطالح الذي لم يُعرَفْ بصلاحٍ ولا استقامةٍ، فهو دجلٌ وشعوذة وتمويه.

معجزات الأنبياء ومُلاءمتها لأزمانها:

في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه أنَّ النبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأُوتِي من الآيات ما مثله آمَن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحيًا أوْحاه الله إليَّ، فأرجو أنْ أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة))[1]، ومراد النبيِّ بما أوتيه معجزته الكبرى وهي القرآن.

وقد شاء الله - سبحانه - أنْ تكون معجزة كلِّ نبيٍّ ملائمة لما اشتهر في زمَنِه، حتى إذا ما عجز الناس جميعهم عن الإتيان بمثْلها كان ذلك أكبر شاهِدٍ على صِدق مَن ظهرتْ على يدَيْه، ولا سيَّما أنها تظهَرُ على يد مَن لم يُعرَف بالتبريز فيما اشتهر في زمنه، ألا ترى أنَّ سيِّدنا موسى - عليه السلام - لَمَّا أُرسِلَ في بيئةٍ اشتهرت بالسحر أعطاه الله بعضَ آياته مناسبةً لما اشتهر في زمنه، فكانت آيته الكبرى[2] هي العصا تكون في يده عصا جامدة لا حسَّ فيها، فيُلقِيها فإذا هي حيَّة تسعى؛ ولذلك لَمَّا حشَر فرعون السَّحَرة بحبالهم وعصيِّهم حتى خُيِّلَ إلى الرائي من سِحرهم أنها تسعَى، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ ما يأفكون، كان أوَّل مَن آمَن بالله هم

---

[1] صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن - باب كيف نزل الوحي.

[2] أعطى الله موسى - عليه السلام - تسع آيات؛ قال - تعالى -: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: 101]، وقال في سورة النمل: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [النمل: 12] وهذه الآيات هي:

(1) العصا
(2) اليد
(3) الجراد
(4) القمل
(5) الضفادع
(6) الدم
(7) الطوفان
(8) السنون
(9) نقص الثمرات

والعلماء وإن اتَّفقوا على العدة إلا أنَّ بعضهم يضَعُ البعض مكانَ الآخر كفلق البحر؛ فإنَّ بعضهم عدَّه بدل نقص الثمرات على اعتبار أنَّ السنين - أي: الجدب - ونقص الثمرات شيءٌ واحد، انظر: "تفسير ابن كثير" في هذه الآية من سورة الإسراء.

السَّحرة؛ لأنهم علموا علمَ اليقين أنَّ عصا موسى ليست من السِّحر في شيء، وأنَّ ذلك لن يكون إلا من فعل القهَّار الذي لا يُغالب، اقرأ قول الله - تعالى - في سورة طه: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} [طه: 65 - 67].

فلم يجدْ فرعون - كما هو شأن المغلوب المكابر - بدًّا من أنْ يرميهم بأنَّه كبيرهم الذي علَّمهم السِّحر، وتوعَّدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم س خِلافٍ، وتصليبهم في جُذوع النَّخل.

فلم ينلْ منهم التهديد ولا الوعيد؛ لأنهم آمَنُوا عن يقينٍ فقالوا: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: 72-73].

وسيِّدنا عيسى - عليه السلام - لَمَّا بُعِثَ في وقتٍ كثُر فيه الاشتِغال بالطب وإلى قوم برَعُوا فيه، كانت آياته مناسبةً لما اشتهر في عصره، فكان يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمَهَ[3] والأبرص ويُحيِي الموتى بإذن الله؛ قال - تعالى -: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 49]، مع أنَّ عيسى - عليه السلام - لم يكنْ ممَّن عُرِفُوا بالنُّبوغ في الطب، ولا ممَّن يُمارِسون هذه الصناعة، فظهور مثْل هذه الخوارق على يدَيْه دليلٌ صدْق على أنها من صُنع الله وأنَّه صادقٌ فيما ادَّعاه.

وخاتم النبيِّين وسيِّد البشر رسولُنا محمَّد - صلوات الله وسلامه عليه - لَمَّا بُعِثَ في وقتٍ اكتَمَل فيه العقلُ البشري، وبلَغَتْ فيه البشريَّة سِنَّ الرشد، واختِيرَ من قومٍ عُرِفُوا بتملُّك زِمام الفَصاحة والبلاغة، والتصرُّف في فنون القول وضُروبه، حتى كان غاية الشريف منهم أنْ يكون شاعِرًا مفلقًا، أو خطيبًا مصقعًا كانت آيته الكبرى قرآنًا يُتلَى بلَغ أقصى درجات الفصاحة والبلاغة مع الإصابة في القول، والحِكمة في التشريع، والصِّدق في المعاني، والنُّبل في المقاصد، والسُّموِّ في الأخلاق والآداب.

المعجزات النبويَّة المحمديَّة:

[3] الأكمه: الذي وُلِدَ أعمى.

المعجزة الكبرى: لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين حسيَّة تنقَضِي بانقِضاء أزمانها، فهي لِمَن شاهَدَها، أمَّا معجزة نبيِّنا الكُبرى فكانت معنويَّة.

ذلك أنَّ رسالات الأنبياء السابقين كانت لبعْض الناس، ولزمانٍ مُؤقَّت معيَّن؛ فهي محدودةٌ بحدود الزمان والمكان، بخِلاف رسالة نبيِّنا؛ فهي للناس كافَّة ومستمرَّة إلى يوم القيامة؛ قال - سبحانه -: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ: 28]، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: 158].

وفي الحديث الصحيح الذي رَواه البخاري ومسلم وغيرهما: ((وكان كلُّ نبيٍّ يُبعَث إلى قومه خاصَّة، وبُعِثتُ إلى الناس عامَّة))، وقد جاءت في وقتٍ بلغَتْ فيه البشريَّة الكمالَ العقليَّ كما ذكرنا، فاقتضت الحكمة الإلهيَّة أنْ تكون آيته الكبرى معنويَّةً باقية على وجْه الدهر ما بقي إنسانٌ ذو فكرٍ على وجْه الأرض.

المعجزات الحسيَّة:

وقد أراد الله - سبحانه - أنْ يجمع الفضْل من أطْرافه لخاتم رُسُلِه، وحامِل لواء الشريعة الباقية الخالدة، فأعطاه معجزات أخرى حسيَّة فضلاً عن مُعجِزته الكُبرى المعنوية، فكان له من المعجزات الحسيَّة مثلُ ما لغيره، بل وأزْيَد، وذلك فضْل الله يُؤتِيه مَن يَشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وحكمةٌ أخرى وراءَ ذلك هي: أنَّ الناس ليسوا سَواء في الإدراك والتفكير وسموِّ الفطرة، فمنهم مَن يَقِفُ عند المحسوس ولا يَسْمُو نظرُه إلى المعقول، ومنهم مَن لا يقتنع لمحسوسٍ، وإنما يقتنع بالمعنويِّ المعقول، فاقتضَتْ حِكمة الله - عزَّ شأنه - أنْ تكون معجزات خاتم أنبيائه بعضها حسي وبعضها معنوي.

وقد ذكَر أئمَّة التفسير في قوله - تعالى -: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة: 253]، أنَّ المراد بِمَن رفَعَه الله درجات سيِّدنا محمد.

قال الإمام الزمخشري في تفسيره "الكشاف" عند هذه الآية: "أي: ومنهم مَن رفَعَه على سائر الأنبياء فكان - بعد تفاوُتهم في الفَضْلِ - أفضلَ مهم بدرجاتٍ كثيرة، والظاهر أنَّه أراد محمدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم - لأنَّه هو الفاضل عليهم حيث أُوتِي ما لم يُؤتَ أحدٌ من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألْف آية أو أكثر، ولو لم يُؤتَ إلا القرآن وحدَه لكفى به فضلاً منيفًا على سائر ما أُوتِي الأنبياء؛ لأنَّه المعجزة الباقية على وجْه الدَّهر دُون سائر المعجزات، وفي هذا الإبهامِ من تفخيم فضْله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنَّه العَلَمُ الذي لا يشتبه، والمتميِّز الذي لا يلتبس، ويُقال للرجل: مَن فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم، يريد الذي تُعُورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح، وأنوه بصاحبه، وسُئِلَ

الحطيئة عن أشعَرِ الناس فقال: زهير والنابغة، ثم قال: لو شِئتُ لذكرتُ الثالث، أراد نفسَه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخم أمره"[4]، وذكَر غيره من المفسِّرين نحوًا من ذلك.

وقد نقَل البيهقي عن الإمام الشافعي - رضِي الله عنه - أنَّه كان يقول: "ما أعطَى الله نبيًّا شيئًا إلا وأعطَى الله محمدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم - ما هو أكثر منه، فقيل له: أعطى عيسى ابن مريم إحياء الموتى، فقال الشافعي: حنينُ الجذع أبلَغُ؛ لأنَّ حياةَ الخشبة أبلَغُ من إحياء الميت، ولو قيل: كان لموسى فلق البحر عارَضْناه بفلق القمر، وذلك أعجب؛ لأنه أيةٌ سماويَّة وإنْ سُئِلنا عن انفجارِ الماء من الحجر عارَضْناه بانفِجار الماء من بين أصابعه - صلَّى الله عليه وسلَّم - لأنَّ خُروج الماء من الحجر مُعتادٌ، أمَّا خروجه من اللحم والدم فأعجب، ولو سئلنا عن تسخير الرياح لسليمان عارَضْناه بالمعراج"[5].

وهكذا لو نهجنا منهجَ إمام الأئمَّة الشافعي لما عجزنا عن أنْ نجدَ لكلِّ معجزةِ لنبيٍّ سابق مثلاً لها أو أبلغ منها لرسولنا - صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقد ذكَر الإمام النووي في مقدمة "شرح صحيح مسلم" أنَّ معجزات النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - تزيد على ألف ومائتين، وقال البيهقي في المدخل: بلغت ألفًا، وقال الزاهدي من الحنفيَّة: ظهر على يدَيْه ألف معجزة، وقِيل أكثر من ذلك.

ولعلَّ السبب في هذه الكثرة الكاثرة - والله أعلم - أنهم عدوا كلَّ ما كان من دلائل النبوَّة معجزات؛ فيدخُل فيها الإرهاصات التي تقدَّمت البَعثة المحمديَّة، وما كان عند الميلاد، بل وما سبق الميلاد من الأمارات الدالَّة على نبوَّته - صلَّى الله عليه وسلَّم - وإلا فلو تتبَّعنا الروايات الصحيحة الموثوق بها لما بلغت المعجزات الحسيَّة عُشْرَ هذا المقدار، والقُرآن الكريم نفسه اشتمل على معجزات كثيرة؛ كالإخبار بالمغيبات السابقة واللاحقة، وتحدِّي اليهود أنْ يتمنَّوا الموت، فلعلَّهم عدوا أيضًا كلَّ هذه معجزات مستقلَّة، وبهذا يخلص لهم من المعجزات شيءٌ كثير.

وقد اعتَنى المحدِّثون في كتبِهم بجمع المعجزات النبويَّة، فعقد الإمام البخاري لذلك بابًا كبيرًا في صحيحه[6]، وألَّف بعض الأئمَّة في ذلك كتبًا خاصَّة كما صنَع الحاكم في "الإكليل"، وأبو سعيدٍ النيسابوري في "شرف المصطفى"، وأبو نعيم والبيهقي في "دلائل النبوة"، وذكر القاضي عياض في "الشفا" من المعجزات النبويَّة شيئًا كثيرًا.

---

[4] انظر: "تفسير الكشاف" عند هذه الآية.

[5] "مناقب الشافعي": ص38.

[6] عنوانه: باب دلائل النبوة.

المعجزات المحمديَّة منها ما تواتر ومنها ما لم يتواتر:

معجزة النبيِّ الكُبرى وهي القُرآن ثابتةٌ بالتواتُر المفيد للقطع واليقين بلا ريب، أمَّا المعجزات الأخرى فمنها ما ثبَتَ بالتواتُر[7]؛ وذلك كالمعجزات التي وردَتْ في القرآن الكريم أو وردت في الأحاديث المتواترة، ومنها ما لم يثبُت بالتواتر بل ثبت بالروايات الأحاديَّة الصحيحة؛ وذلك كالمعجزات الثابتة بالأحاديث التي لم تتواتر، ومن هذه ما استفاضَ واشتهر برواية الأئمَّة العدول الثقات حتى كاد يلحق بالمتواتر.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"[8]: "وأمَّا ما عدا القرآن من نبْع الماء بين أصابعه وتكثير الطعام، وانشقاق القمر ونُطق الجماد فمنه ما وقَع التحدِّي به، ومنه ما وقع دالاًّ على صِدقه من غير سبق تحدٍّ، ومجموع ذلك يُفِيدُ القطع بأنَّه ظهَر على يده - صلَّى الله عليه وسلَّم - من خَوارق العادات شيء كثير، كما يقطع بوجود جود "حاتم" - يعنى: الطائي - وشجاعة علي، وإنْ كانت أفراد ذلك ظنيَّة وردت موردَ الآحاد، مع أنَّ كثيرًا من المعجزات النبويَّة قد اشتهر وانتشر ورَواه العدد الكثير، والجم الغفير، وأفاد الكثيرُ منها القطعَ عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصلْ عند غيرهم إلى هذه الرُّتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادَّعَى مُدَّعٍ أنَّ غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريقٍ نظري لم يكن مستبعدًا".

ومن هذه المعجزات الحسيَّة الإسراء برسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي شرَّفَه الله وبارَك فيما حوله، ثم العُروج به من تلك البقعة المباركة إلى السَّماوات السبع وما فوقهنَّ، حتى انتهى إلى مستوى لم يصلْ إليه غيرُه، وسنفيض القول في هاتين المعجزتين عن قريبٍ.

ومنها انشِقاق القمر لَمَّا طلَبُوا من النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - آيةً حتى صار فلقتين، وقد نُقِلَ هذا عن نفرٍ من الصحابة بالرِّوايات الصحيحة المستفيضة.

ويرى بعضُ العلماء أنَّ انشِقاق القمر ثابتٌ بالقُرآن المتواتر بقوله - تعالى -: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: 1].

---

[7] المتواتر من الأخبار ما رواه جماعةٌ كثيرةٌ عن جماعةٍ يحيلُ العقل تواطُؤهم على الكذب، وكان مَرجِعُ الخبر إلى الحسِّ والمشاهدة، وهو قسمان: لفظي ومعنوي، فاللفظي: ما اتَّفقت فيه الرِّوايات على لفظٍ واحد، كحديث: ((مَن كذب عليَّ مُتعمِّدًا فليتبوَّأ مقعدَه من النار))، والمعنوي: ما اختلفت فيه الروايات في اللفظ ولكن المعنى واحد؛ كالروايات الدالَّة على شَجاعة سيِّدنا علي مثلاً، فهي بألفاظٍ مختلفة وفي مواطن متعدِّدة، ولكنها تدلُّ على قدرٍ مشترك وهو الشجاعة، والقسم الأول نادرٌ في الأحاديث والثاني كثير.

[8] "فتح الباري": ج6، ص453، ط. البهية.

ولولا إمكان التأويل في جَواز إرادة أنَّ ذلك سيكون بعدُ قُربَ قيام الساعة، كما ذهب إليه بعض أهل العلم قديمًا وحديثًا - لكانت هذه المعجزة قطعيَّة الثُّبوت.

ومن المعجزات الحسيَّة نبْع الماء من بين أصابعه أو البركة في الماء القليل بالتفل فيه أو بلمْسه أو بوضع شيءٍ فيه كسهمٍ من كنانته - صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقد رُوِيَ كلُّ ذلك من طرقٍ كثيرة حتى قال الإمامان: عياض والقرطبي أنَّ مجموعها يُفِيدُ العلم القطعي المستفاد من المتواتر المعنوي.

ومنها البركة في الطعام القليل حتى يَكفِي العددَ الكثير ممَّا هو غير معهودٍ في العادة، وقد رُوِيَ هذا أيضًا بالطُّرق المتكاثرة التي تفيد التواتر المعنوي.

ومنها حنينُ الجذع، روى البخاري في "صحيحه" عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما -: أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - كان يقومُ يوم الجمعة إلى نخلةٍ فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعَل لك مِنبَرًا؟ قال: ((إنْ شئتم))، فجعلوا له منبرًا، فلمَّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صِياح الصبي ثم نزل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فضمَّه إليه يئنُّ أنينَ الصبي الذي يسكُن قال: ((كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها)).

ولَعمرُ الحق إذا كان الجذع حنَّ شوقًا وتأثُّرًا بما يسمع من الذِّكر والقُرآن فما بالُ هؤلاء الذين تُتلَى عليهم آياتُ الله بكرةً وعشيًّا، وتُلقَى عليهم مواعظُ النبيِّ وكَلِمه الجوامع وعِباراته المؤثِّرة - لا تَلِينُ قلوبهم، ولا تقشعر جلودهم، ولا تفيض بالدمع عيونهم! ألا {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46].

لقد كان الحسَن البصري واعظُ عصره وفصيحُ وقته إذا حدَّث بحديث الجذع يقول: يا معشَرَ المسلمين، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - شوقًا إلى لقائه لمكانه، فأنتم أحق أنْ تشتاقوا إليه.

ورحم الله الإمام البوصيري حيث يقول:

وَسَلَوْهُ وَحَنَّ جِذْعٌ إِلَيْهِ = وَقَلَوْهُ وَوَدَّهُ الغُرَبَاءُ

ومن المعجزات الحسيَّة ردُّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - عينَ قتادة بن النعمان لَمَّا أصيب يومَ أحدٍ وسقطت على وجنته، فعادت أحسنَ عينه وأحدَّهما.

ولَمَّا دخَل عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان على الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز - رضي الله تعالى عنه - قال له: مَن أنت؟ فقال مرتجلاً:

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ = فَرُدَّتْ بِكَفِّ الْمُصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا = فَيَا حُسْنَهَا عَيْنًا وَيَا حُسْنَ مَا خَدِّ

قال عمر بن عبدالعزيز متمثِّلاً بقول الشاعر:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ = شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

وهذا قل من كثرٍ من مُعجِزاته - صلَّى الله عليه وسلَّم - الباهرات وآياته البيّنات.

المنكرون للمعجزات الحسيَّة:

وقد دَعاني إلى تفصيل القول في المعجزات النبويَّة الحسيَّة ما يَزعُمه بعض الباحثين الكاتبين من أنَّه ما دام القُرآن آيةٌ دالَّة على صِدق النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فنحن في غنيةٍ عن النظَر في غيره من الآيات، ولا سيَّما والكثير منها لم يَثبُتْ إلا بالطُّرق الأحاديَّة التي لا تفيدُ القطع، وكثيرًا ما يجرُّهم هذا الكلام المتلبِّس بالتستُّر إلى إنكار المعجزات الحسيَّة جملةً، وأحبُّ أنْ أقول لهؤلاء: إنَّ موقفهم من المعجزات الحسيَّة وإنكارها حَدَا ببعض المبشِّرين والمستشرقين إلى الطَّعن في النبي والوحي المحمدي؛ بحجَّة أنَّ النبيَّ ليس له من المعجزات الحسيَّة المتكاثِرة ما لموسي وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - وهكذا نراهُم - وإنْ لم يقصدوا - قد أعطوا لأعداء النبيِّ الطاعنين فيه خِنجَرًا يُساعِدهم على الطَّعن فيه والنَّيْل منه.

وردِّي على هؤلاء الْمُنكِرين للمُعجِزات الحسيَّة أو التقليل من شأنها: أنَّ الشيء إذا تواردت عليه الأدلَّة والبراهين ازداد قوَّة وثَباتًا حتى يصلَ العلم به إلى عين اليقين، وليس من شكٍّ في أنَّ انضِمام المعجزات الحسيَّة إلى المعجزة الكبرى المعنويَّة وهي القُرآن؛ ممَّا يعود بالقوَّة واليقين على الرِّسالة المحمديَّة ويقطع على الأقل قالةَ أعداء الإسلام ونبيِّه، ولا أدري أي حجة لهم في استِبعاد المعجزات الحسيَّة وإنكارها، وها هي كُتُبُ الله المنزلة جميعُها تُثبِت لأنبياء الله ورسله آياتٍ تَفُوق الحصر؟!

ثم ما هذه البِدعة السيِّئة، بدعة أنَّ الخبر ما دام لم يتواتَرْ لا يقبل ولا يُؤخَذ به، ولو أنَّ كلَّ مسألةٍ من مسائل العلم والمعرفة لم نكتفِ فيها إلا بالتواتُر لما سَلِمَ لنا من المعارف إلا القليل، بل لو أنَّنا طبَّقنا هذه القاعدةَ على علم التاريخ والأخبار والآداب لما سلم لنا منها إلا شيء أقل من القليل.

على أنَّه لا ينبغي أنْ يَغِيبَ عن ذِهن القارئ الفَطِن أنَّ الرِّواية في الإسلام بشُروطها؛ من اتِّصال الأسانيد، ونقل العُدول الضابطين عن مِثلهم إلى آخِر السند، والحفظ واليقظة وعدم الغفلة - ضَمانات كافية لتُرجِّح الصدق والصواب ترجيحًا قويًّا على الكذب والخطأ، وتُرجِّح الحِفظ والضَّبط على جانب الغَفلة والسَّهو، وأنَّ أئمَّة الحديث بذلوا جُهدًا جبَّارًا في غربلة الأحاديث وتنقيتها ممَّا عسى أنْ يكون علق بها، ونقْد الرواة نقدًا لم تبلغْه أمَّة من الأمم لا في القديم ولا في الحديث، وها أنت قد سمعتَ آنفًا ما ذكَرَه أئمَّة الحديث وجَهابذته من أنَّ الكثير منها يَكاد يبلُغ مَبلَغ المتواتر، وأنَّ بعضها تواترت به بالفعل.

ولو أنَّ هؤلاء المنكِرين أو المشكِّكين في المعجِزات الحسيَّة تناوَلوا الرّوايات الحديثيَّة بمثْل ما تناوَلَها به عُلَماء أصول الرّواية، ونظَرُوا فيها بمنظارهم الدَّقيق الحَصِيف، وتذوَّقوها بذَوْقِهم السَّلِيم، لعرَفُوا الحقَّ ثم اعترَفُوا به.

وبعضُ هؤلاء المنكِرين لا حجَّة لهم إلا استبعادها وزعْمهم أنَّ العقل لا يُسلِّم بها، وإنّي أقول لهؤلاء: إنَّ تحكيمَ العقل في الغيبيَّات وخَوارق العادات ليس من الحِكمة في شيءٍ، وللعقل منطقتُه التي لا يتجاوَزُها، ورَحِمَ الله إمامَنا الشافعي حيث يقول: "كما أنَّ للبصر مجالاً لا يعدوه فكذلك للعقل مجالٌ لا يتجاوَزُه"، ولو أنَّ كلَّ شيءٍ لا يقَعُ تحت الحس أو لا يستسيغُه العقل أو يُخالِف المألوف والعادة نُنكِره، لوقعنا في مَتاهاتٍ من الضلال والغيّ، والجحود والإنكار، وقُصارى القول أسوقُ للقاري البصير هذه الحكمة الخالدة وهي أنَّ كلَّ شيءٍ أخبر الشارع بوُقوعه فهو في دائرة الإمكان، ومن يدَّع الاستحالة فعليه البيان.

الفصل الثاني
قبيل الإسراء والمعراج

ها هي قريش وقفَتْ عقبةً كؤودًا في سبيل الدعوة الإسلاميَّة، وعادَتِ الرسول وأصحابه، ولَجَّت في العَداوة والإيذاء، وتجاوَزَتِ الحدَّ في الطُّغيان؛ فقاطعت كلَّ مَن ينتَصِر للنبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - ولو حميَّةً ممَّن كان على دِينهم، كما حدَث في مسألة الصحيفة التي آلوا فيها على أنفُسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب حتى بلغ الجَهد مهم مَبلَغَه.

وها هي الأحداثُ المحزنة تتوالَى؛ فأبو طالب شيخُ قريش ومانعُ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - من أذى قريش وناصره تَنزِل به المنيَّة ويزيد من هول الفجيعة موتُ السيدة المهيبة في قومها خديجة بنت خُوَيلِد زوجه التي واسَتْه بنفسها ومالها، والتي كانت له وزيرةَ صِدقٍ تُعِينه عند الشدائد، وتُسرّي عن نفسه عند البلاء، بما عُهِدَ عنها من عقلٍ حصيف، وقلبٍ رحيم، وصدرٍ حنون، وعِبارات تغسل أثَر الألم، وتزدادُ إساءات قريش للنبيِّ وصحبه، وتقفُ من الدعوة المحمديَّة موقفَ العناد والإباء والتمنُّع، فيبدو للنبيِّ أنْ يُيمِّمَ وجهه شطرَ الطائف؛ عسى أن يجد فيها مُتنفَّسًا للدعوة إلى سبيل ربِّه، فذهب ومعه حِبُّه ومولاه زيد بن حارثة إلى الطائف، وهنالك اتَّصل برُؤَساء ثقيف: عبديالِيل ومسعود وحبيب أولاد عمرو ابن عمير الثقفي، فعرَض عليهم الإسلامَ ونُصرته حتى يُبلِّغ رسالة ربِّه، فردُّوا عليه ردًّا قبيحًا، وكانوا أسوَأ حالاً من أهل مكَّة، فرجَا منهم أنْ يكتُموا أمره معهم على قريش حتى لا يشتد إيذاؤهم له، فما وجَد منهم مروءةً ولا عهدًا، وأغروا به سُفَهاءهم وصِبيانهم يَرجُمونه بالحجارة حتى سالَ الدمُ الذكي من عقبَيْه، وزيد - رضِي الله عنه - يدرَأُ عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فلجأ إلى ظِلِّ شجرةٍ بجوار بستانٍ لشيبة وعتبة ابني ربيعة فكأنهما رقَّا له لما نزل به، فأرسَلا له غُلامًا لهما يُسمَّى "عداسًا" بقطفٍ من عنب، فلمَّا ابتدأ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يأكُل قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟)) قال: أنا نصراني من "نينوى" فقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((من بلد العبد الصالح يونس بن متى؟)) فقال عداس: وما علمك به؟ فقرَأ عليه النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ما يتعلَّق بقصة يونس في القرآن الكريم فأسلم عداس لَمَّا سمع حديث القرآن عنه.

توجُّهٌ إلى الله بالدعاء:

ولم يجد الرسول بُدًّا - وقد فقَد الرحمة والمواساة والنُّصرة من الناس - من أنْ يتوجَّه بقلبه وبصره إلى السماء، داعيًا الرحمن بهذا الدعاء الذي لا يصدر إلا من قلبٍ مفعمٍ بالإيمان، ونفسٍ راضية مطمئنَّة، يَهُون عليه كلُّ شيء من لأْواء الحياة وشدائدها وبَلائها في سبيل الحق والمُثُلِ الإنسانيَّة الرَّفيعة فقال: ((اللهم إليك أشكو ضعفَ قوَّتي، وهَواني على الناس، يا أرحَمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعَفِين وأنت ربِّي، إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمري؟ إنْ لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالِي، ولكن عافيتك أوسع لي، اللهم إنِّي أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقَتْ له الظُّلمات، وصلَح عليه أمرُ الدنيا والآخِرة من أنْ يَنزِل بي غضَبُك، أو يحلَّ بي سخطك، لك العُتبَى حتى تَرضَى ولا حول ولا قوَّة إلا بالله)).

ثم قفَل راجعًا إلى مكَّة، وهو مهموم النفس، مكلوم الفُؤاد.

وفي الطريق جاءَه جبريل فقال: إنَّ الله أمرَنِي أنْ أطيعَك في قومك لما صنعوه معك فقال النبي: ((اللهم اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلَمُون)) فقال جبريل - عليه السلام -: صدق مَن سمَّاك الرؤوف الرحيم.

فلمَّا وصَل النبيُّ وصاحبُه إلى مكَّة أبَى عليه كفَّارها أنْ يدخُلها لَمَّا بلغهم ذهابه إلى ثقيف واستِنصاره بهم عليهم، فأرسَلَ إلى المطعِم بن عدي مُستَجِيرًا، وكان الرجل كريمًا ذا مروءة، فما لبث أنْ خرج إلى الرسول هو وبنوه لابِسين السِّلاح وأحاطوا به من كلِّ جانِبٍ حتى دخَل النبيُّ المسجدَ الحرام وطافَ حول الكعبة ولم يستطع أحدٌ أنْ يخفر جواره.

الإسراء والمعراج تسريةٌ عن نفس الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم -:

وفي هذه الغمرة من المآسِي والأحزان، وصُدود القوم عن الإيمان، ومحاربة الدعوة بكلِّ الطرق والوسائل، وبعدَ هذه الشدائد المتلاحقة كان من رحمة الله بعَبدِه وحبيبه محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنْ يُسرِّي عن نفسه الجريحة، وفُؤاده المحزون، فكان "الإسراء" و"المعراج" حيث شاهَد من آيات ربِّه ما شاهَد، وعايَن من أمارات العناية الإلهيَّة به وبدعوته ما زاده يقينًا إلى يقينٍ بنَجاح دعوته، وتَبلِيغ رسالة ربِّه، والنصر على أعدائه، وأطلَعَه الله من مَلكُوته العظيم على ما أطْلعه عليه ممَّا ملأ النفس رضًا، والقلب نورًا، والصدر ثلجًا وطمأنينة.

ما هو الإسراء والمعراج[9]؟

---

[9] الإسراء في اللغة: مصدر أسرى، وهو سيرُ عامَّة الليل، ويقال: أسراه وأسرى به، وعلى الثانية جاء القرآن الكريم.

وجمهور اللغويين على أنَّ سرى وأسرى بمعنًى واحد، وبعضهم يُفرِّق بينهما فيقول: أسرى: سار من أوَّل دليل، وسرى: سار من آخره.

والمعراج بكسر الميم قال ابن الأثير: المعراج بالكسر شبه السُّلَّم مفعال من العروج؛ أي: الصعود كأنَّه آلةٌ له مأخوذٌ من عرج يعرج عُروجًا إذا صعَد، والمراد به المصدر؛ أي: العروج.

الإسراء: هو ذَهاب الله بنبيِّه محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - من المسجد الحرام بمكَّة إلى المسجد الأقصى بإيلياء - مدينة القدس - في جُزْءٍ من الليل ثم رُجوعه من ليلته.
المعراج: هو صُعوده - صلَّى الله عليه وسلَّم - من بيت المقدس إلى السماوات السبع وما فوق السبع، ثم رُجوعه إلى بيت القدس في جزءٍ من الليل.

ثُبوت الإسراء والمعراج:

الإسراء ثابتٌ بالقُرآن والأحاديث الصحيحة المتكاثرة.
أمَّا القرآن ففي قوله - سبحانه -: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[10][الإسراء: 1].
وأمَّا الأحاديث فسنُشِير إليها فيما بعدُ.
وأمَّا المعراج فهو ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة التي رَواها الثقات العُدول وتلقَّتها الأمَّة بالقبول، ولو لم يكن إلا اتِّفاق صاحبي الصحيحين: البخاري ومسلم، على تخريجها في صحيحَيْهما لكفى، فما بالك وقد خرَّجها غيرُهما من أصحاب كتب الحديث المعتمَدة وكتب السير المشهورة.
ويرى بعضُ العلماء أنَّ المعراج وإنْ لم يثبُتْ بالقرآن صَراحةً ولكنَّه أُشِيرَ إليه في سورة النجم في قوله - تعالى -: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: 13 - 18].
فقد رُوِيَ عن ابن مسعود والسيدة عائشة - رضي الله عنهما - أنَّ المرئيَّ هو جبريل[11]، رآه رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - على هيئته التي خُلِقَ عليها ولم يَرَهُ على هذه الحالة إلا مرَّتين:

---

[10] بدأ الآية بلفظ {سبحان} لأنَّ من قدر على هذا فهو مستحقٌّ للتنزيه والتقديس وفيما معنى التعجب، وما أجدر الإسراء بأنْ يتعجب منه! وفي ذكر العبد هذا المقام تشريف، وتحذير أن يتَّخذ الإسراء وسيلة لرفْع الرسول من مقام العبودية إلى مقام الألوهيَّة، وذكر لفظ " ليلا " مع أن الإسراء لا يكون ألا ليلاً للإشارة إلى أنه في جزء من الليل والمسجد الحرام بمكة.
وسمى حرامًا لحرمته والمسجد الأقصى: ببيت المقدس وسمي الأقصى لبعدها من المسجد الحرام والمراد بقوله "باركنا حوله" البركات الدينية والدنيوية، أمَّا بركاته الدينيَّة فلكونه مقرَّ الأنبياء ومهاجر الكثير منهم ، وقبلتهم ومهبط الملائكة وهو أحدُ المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرجال مسجد مكة ومسجد المدينة، مسجد بيت المقدس، والتي يُضاعَف فيها ثوابُ الصلاة، وأمَّا الدنيويَّة فلما يحيط به من الأنهار الجارية والزروع والبساتين النضرة {لنريه من آياتنا} المراد بها ما أراه الله لنبيه في هذه الليلة من مخلوقات الله وآلائه وجَلاله وعَجائب صُنعه، وما أفاض به على قلبه من فيوضات ربانيَّة والتعبير بمن هنا غاية البلاغة لأنَّ الله أرى نبيه بعض آياته لا كلها؛ إذ آيات الله لا تنهى، ولا يتسع لها قلب بشر، وما أبلغ من يختم الآية بقوله: {إنه هو سميع بصير} فهو عدة للمؤمنين بالإسراء بالجميل، والثواب الجزيل، ووعيد للمكذبين والمرجفين.

الأولى: وهو نازلٌ من غار حراء، والثانية ليلةَ المعراج قال العلامة ابن كثير في "تفسيره"[12] ما خُلاصته مع التوضيح: وقد رأى النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - جبريل - عليه السلام - على صُورته التي خلَقَه الله فيها مرَّتين: الأولى عقب فترة الوحي، والنبيُّ نازلٌ من غار حراء فرآه على صورته له ستمائة جناح، قد سَدَّ عظم خلفه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله - عزَّ وجلَّ - ما أوحى، وإليه أشار الله بقوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى}[13][النجم: 5 - 10].

والثانية: ليلة الإسراء والمعراج عند سِدرة المنتهى، وهي المشار إليها في هذه السورة - النجم - بقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} [النجم: 13-14].

الإسراء والمعراج بالجسد والروح:

جمهور العُلَماء من السَّلَفِ والخلَف على أنهما كانا في ليلةٍ واحدة، وأنهما كانا بجسده ورُوحه - صلَّى الله عليه وسلَّم - وهذا هو الذي يدلُّ عليه قوله - تعالى - في مفتتح سورة الإسراء السابقة {بعبده} وليس ذلك إلا الرُّوح والجسد.

وقد توارَدتْ على ذلك الأخبارُ الصحيحةُ المتكاثرة والنُّصوص على ظَواهِرها ما لم يقمْ دليلٌ على صَرفِها عن ظاهرها، وأنَّى هو؟!

وفي الأحاديث الصحيحة أنَّه شُقَّ صَدرُه الشريف، وركب البراق وعُرِجَ به إلى السماء، ولاقَى الأنبياء، وفُرِضت عليه الصَّلوات الخمس وأنَّ الله كلَّمَه، وأنَّه صارَ يرجع بين موسى - عليه السلام - وبين ربِّه - عزَّ وجلَّ - ممَّا يُؤكِّد أنهما كانا بجسده الشريف ورُوحه، وينفي ما عدا ذلك.

القائلون بأنهما كانا بالروح:

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنهما كانا بروحه - عليه الصلاة والسلام - ونُسِبَ القولُ به إلى السيدة عائشة والسيد معاوية - رضي الله عنهما - وذكَرُوا في هذا أنَّه رُوِي عن السيدة عائشة أنها قالت: "ما فقدت[14] جسد رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -

---

[11] ورُوِيَ عن ابن عباس أنَّ المرئي هو الله - سبحانه وتعالى - والأوَّل هو الصحيح المعتمد، وعلى رأي ابن عباس فالآية دالَّة أيضًا على المعراج؛ لأنَّه يرى أنَّ ذلك كان ليلة المعراج.

[12] تفسير ابن كثير والبغوي: ج 8 ص 96 وما بعدها ط المنار.

[13] الضمير في قوله "فأوحى" عائدٌ على جبريل وهو الظاهر المقبول؛ لأنَّه المتحدَّث عنه، وقيل: عائدٌ على الحق - تبارك وتعالى - وهو بعيدٌ مردود؛ لما فيه من تفكيك النَّظم الكريم، وأمَّا الضمير في "عبده" فهو راجعٌ إلي الله - سبحانه – فحسب؛ أي: فأوحي جبريل إلى عبد الله محمَّد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل.

[14] رُوِيَ "فقدت" مبنيًّا للمعلوم ورُوِي "فُقِدَ" مبنيًّا للمجهول.

ولكنْ أُسري بروحه"، وهو حديثٌ غير ثابتٍ، وهَّنَه القاضي عِياض في "الشفا" سندًا ومتنًا، وحكم عليه الحافظ ابن دحية بالوضْع.

وممَّا يضعف هذا الأثر ويردُّه أنَّ السيدة عائشة - رضي الله عنها - لم تكنْ حينئذٍ قد دخَل بها رسولُ الله، فإنَّ من المتَّفَقِ عليه أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - لم يَبْنِ بها إلا بعدَ الهجرة، وإنْ خطَبَها قبلها بسنة، وقيل: بسنتين.

وممَّا يردُّ ما نُسِبَ إلى عائشة أيضًا أنَّ الثابت عنها أنها كانت تُنكِر على مَن يقول: إنَّ محمدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم - رأى ربَّه ليلة المعراج، وتستدلُّ بآياتٍ من الكتاب على حسَب اجتهادها وفهمها، فلو كانت ترى هذا الرأي الذي نسَبُوه إليها زورًا لكان أقرب شيءٍ في ردِّها على مَن يقول بالرؤية أنْ تحتجَّ عليهم بأنَّ المعراج لم يكن بجسده، ولكن لم ينقل عنها أنها احتجَّت بذلك، والظاهر أنَّ ما رُوِي عن معاوية - رضي الله عنه - غير صحيح أيضًا، وهو حين الإسراء والمعراج لم يكن أسلمَ بعدُ.

ولو سلَّمنا بما نسب إليهما - جدلاً - فظواهر القرآن والسُّنَّة الصحيحة تردُّه.

القائلون بأنهما كانا مَنامًا:

وأبعَدُ من هذا القول قولُ مَن ذهب إلى أنهما كانا في المنام، ويستدلُّون على ذلك بقوله - تعالى -: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء: 60].

وقالوا: الآية تُشِير إلى الإسراء والمعراج، والرُّؤيا إنما تُطلَق على المناميَّة لا البصريَّة، وليس أدل على ردِّ استدلالهم بهذه الآية من قول ابن عباس في تفسيرها: "هي رؤيا عين أُرِيَها رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ليلةَ أُسرِي به، والشجرة الملعونة شجرة الزقوم"؛ رواه البخاري في "صحيحه"، والترمذي والنسائي في سننهما، ومراد ابن عباس برُؤيا العين جميع ما عايَنَه - صلَّى الله عليه وسلَّم - ليلةَ أُسرِي به من العجائب السماويَّة والأرضيَّة.

وابن عباس حبر الأمَّة وترجمان القرآن ومِن أعلم الناس بالعربيَّة، وكان إذا سُئِلَ عن لفظٍ من القران ذكَر له شاهدًا من كلام العرب، فكلامه حجَّة في هذا، فالرؤيا كما تُطلَق على المناميَّة تُطلَق على البصريَّة أيضًا.

ومن شَواهِد ذلك من لغة العرب الذين يحتجُّ بكلامهم قول الراعي يصف صائدًا:

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ = وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

وأيضًا لو كان في المنام لم يكن فيها شيءٌ يُستَعظَم، ولما بادَر كفار قريش إلى تكذيب الرسول، ولما ارتدَّ بعضُ ضُعَفاء الإيمان ممَّن كانوا أسلَمُوا؛ إذ كثيرٌ من الناس يرَوْن في مَنامِهم مثل ذلك وأكثر، فيرى الرائي أنَّه ذهب إلى السماء أو إلى أقصى المعمورة؛ فاستِبعادُهم لذلك ومسارعتهم إلى تكذيب الرَّسول عقب إخبارهم من أظهر الأدلَّة على أنهم فَهِمُوا من إخْبار النبيِّ أنهما كانا في اليقَظَة لا في المنام.

الفرق بين كونهما بالرُّوح وكونهما مَنامًا:

وممَّا ينبغي أنْ يُعلَم أنَّ بعض الكاتبين في الإسراء والمعراج يخلط بين قول مَن يقول: كانا منامًا، وقول مَن يقول: كانا بالروح، وبينهما فرق؛ فمَن قال بالروح أراد أنَّ الروح بما لها من قُدرةٍ على التصرُّف والانتقال هي التي انتقلت وجالت في هذه المعاني المقدَّسة في الأرض وفي السماء، وأمَّا مَن قال: في المنام، فإنما أراد حُدوث صور وانكِشافات للرُّوح فيما وَراء الحسِّ من عالم الغيب من غير انتِقال ومُفارقة للبَدَن.

وقد تنبَّه إلى هذا الفرق الدقيق العلاَّمة ابن القيِّم في كتابه "زاد المعاد" قال: "وقد نقَل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء برُوحه ولم يفقدْ جسده، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك.

وممَّا ينبغي أنْ يُعلَم الفرق بين أنْ يُقال: كان الإسراء مَنامًا وبين أنْ يُقال: كان بروحه دون جسَدِه وبينهما فرقٌ عظيم، وعائشة ومعاوية لم يقولا: كانا مَنامًا، وإنما قالا: أُسرِي بروحه ولم يفقدْ جسَده، وفرقٌ بين الأمرين: فإنَّ ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في صُورة المحسوس فيرى كأنَّه قد عرج به إلى السَّماء، أو ذهب به إلى مكَّة، وأقطار الأرض، ورُوحه لم تصعدْ ولم تذهب وإنما ملك الرُّؤيا ضرَب المثال.

والذين قالوا عُرِجَ برسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - طائفتان: طائفة قالت: عُرِجَ بروحه وبدنه، وطائفة قالت: عُرِجَ بروحه، ولم يفقدْ بدنه[15]، وهؤلاء لم يريدوا أنَّ المعراج كان مَنامًا، وإنما أرادوا أنَّ الرُّوح ذاتها أُسرِي بها وعُرِجَ بها حقيقة، وباشَرتْ من جنس ما تُباشِر بعد المفارقة، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صُعودها إلى السماوات سماءً سماءً حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدي الله - عزَّ وجلَّ - فيأمُر فيها بما شاء، ثم تَنزِل إلى الأرض فالذي كان لرسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ليلة الإسراء أكمَلُ ممَّا يحصل للروح عند المفارقة، ومعلومٌ أنَّ هذا أمرٌ فوق ما يراه النائم، لكن لَمَّا كان رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - في مَقام خرْق العوائد حتى شُقَّ بطنُه وهو حيٌّ لا يتألَّم بذلك عرج بذات روحه المقدَّسة من غير إماتة، ومَن سواه لا ينال بذات روحه الصُّعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة، والأنبياء إنما استقَرَّتْ أرواحهم هناك بعد مُفارَقة الأبدان، ورُوح رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - صعَدتْ إلى هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعدَ وَفاته استقرَّت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء، ومع هذا فلها إشرافٌ على البدن وإشراقٌ وتعلُّقٌ به، بحيث يردُّ السلام على مَن سلَّم عليه، وبهذا التعلُّق رأى موسى قائمًا يُصلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة، ومعلومٌ أنَّه لم

[15] وهناك طائفة ثالثة تقول: كان في المنام، كما ذكرنا وردَدْنا قولهم.

يعرج بموسى من قبره ثم ردَّ إليه، وإنما ذلك مَقام رُوحه واستقراره إلى يوم مَعاد الأرواح إلى أجسادها، فرآه يُصلِّي في قبره ورآه في السماء السادسة.
كما أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - في أرفَعِ مكانٍ في الرَّفيق الأعلى مستقرًّا هناك وبدَنُه في ضريحه غير مفقود، وإذا سلَّم عليه المسلِّم ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى.
ومَن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا، فلينظُر إلى الشمس في علوِّ محلها وتعلُّقها، وتأثيرها في الأرض وحياة النبات والحيوان بها.
هذا، وشأن الروح فوق هذا؛ فلها شأنٌ وللأبدان شأن، وهذه النار تكون في محلِّها وحَرارتها تُؤثِّر في الجسم البعيد عنها مع أنَّ الارتباط الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتَمُّ، فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف"[16].
وهذا الفصل القيِّم من النَّفاسة بمكانٍ آثَرتُ ذِكره كله؛ لما فيه من الفوائد الجمَّة، والإبانة عن مسألةٍ كثيرًا ما يسأل الناس عنها وهي تعلُّق الأرواح بالأجساد.

الإسراء ووحدة الوجود:

ولا يفوتُني وقد عرَضتُ لآراء في الإسراء والمعراج وبيَّنت الصحيح منها من الزائف أنْ أُعرِّج على رأيٍ ساقه الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - في كتابه "حياة محمد" - عليه الصلاة والسلام - وهو تصويرُ الإسراء والمعراج تصويرًا روحيًّا مبنيًّا على فكرة "وحدة الوجود".
وهاكَ ما ذكره في كتابه بعد ما ذكر خلاف العلماء في الإسراء والمعراج أهو بالجسد أم بالروح؟ قال: "ففي الإسراء والمعراج في حياة محمَّدٍ الروحيَّة معنى سامٍ غاية السموِّ، معنى أكبر من هذا الذي يُصورون، والذي قد يَشُوب بعضه من خَيال المتكلمين حظٌّ غير قليل، فهذا الروح القويُّ قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غايةَ كمالها، لم يقفْ أمامَ ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجابٌ من الزمان أو المكان، أو غيرهما من الحجب التي تجعل حُكمنا نحن في الحياة نسبيًّا محدودة بحدود قوانا المحسَّة، والمدبَّرة، والعاقلة تَداعَتْ في هذه الساعة كلُّ الحدود أمامَ بصيرة محمد، واجتَمعَ الكون كلُّه في روحه؛ فوَعاه منذ أزله إلى أبده، وصوَّره في تطوُّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلُّبها على الشر والنقص، والقبح والباطل، بفضلٍ من الله ومغفرة.
وليس بمستطيعٍ هذا السُّمو إلا قوَّة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانيَّة، فإذا جاء بعد ذلك ممَّن اتَّبعوا محمدًا من عجز عن متابعته في سموِّ فكرته، وقوَّة إحاطته بوحدة الكون في كَماله، وفي جِهاده لِبُلوغ هذا الكمال فلا عجب في ذلك ولا عيب فيه"[17].

[16] "زاد المعاد في هدي خير العباد": ج2 ص 48-49 ط الحلبي.

بطلان فكرة وحدة الوجود:

وفكرة وحدة الوجود فكرةٌ خاطئةٌ وافدةٌ إلى الإسلام فيما وفَد إليه من آراءٍ فاسدة، وهي من مخلَّفات الفلسفات القديمة، وقد انتصر لها وتشيَّع بعض المتصوِّفة الذين ينتسبون إلى الإسلام، وكتبوا فيها فكان عاقبتهم الإلحاد في الله وصِفاته.

وقد أبانَ بُطلانها كثيرٌ من عُلَماء الأمَّة الراسخين في العلم، المتثبِّتين في العقيدة، والقول بها يُؤدِّي إلى القول بالطبيعة، وقِدَم العالم وإنكار الألوهيَّة، وهدْم الشرائع السماويَّة التي قامت على أساس التفرقة بين الخالق والمخلوق، وبين وجود الرب ووجود العبد، وتكليف الخالق للخلق بما يُحقِّق لهم السعادة، ومُقتَضى هذا المذهب أنَّ الوجود واحد، فليس هناك خالق ومخلوق، ولا عابدٌ ومعبود، ولا قديم وحادث، وعابدو الأصنام والكواكب والحيوانات حين عبَدُوها إنما عبدوا الحق؛ لأنَّ وجودها هو وجود الحق، إلى آخر خُرافاتهم التي ضلُّوا بسببها وأضلُّوا غيرهم، والتي أضرَّت بالمسلمين وجعلتهم شِيَعًا وأحزابًا، ولقد بلغ بعضهم أنَّه قال: إنَّ النصارى ضلُّوا لأنهم اقتصروا على عبادة ثلاثة ولو أنهم عبَدُوا الوجود كلَّه لكانوا راشدين؟

وقال بعض المعتنقين لهذه الفكرة الفاسدة:

الْعَبْدُ حَقٌّ وَالرَّبُّ حَقٌّ = يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ الْمُكَلَّفْ؟
إِنْ قُلْتَ: عَبْدٌ، فَذَاكَ مَيْتٌ = أَوْ قُلْتَ: رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفْ؟!

قال العلامة تقي الدين أحمد بن تيميَّة الحرَّاني في كتابه "الرد على المنطقيين"[18] بعد أنْ ذكَر الفَناء المحمود، والفناء المذموم: "ولهذا لما سلَك ابن عربي وابن سبعين وغيرُهما هذه الطرق الفاسدة أورثهم ذلك "الفناء عن وجود السوى"، فجعلوا الموجود واحدًا ووجود كلِّ مخلوق هو عين وجود الحق، وحقيقة الفناء عندهم: ألاَّ يرى إلا الحق، وهو الرائي والمرئي، والعابد والمعبود، والذاكر والمذكور، والناكح والمنكوح، والآمِر الخالق هو المأمور المخلوق، وهو المتَّصف بكلِّ ما يُوصَف به الوجود من مدحٍ وذم، وعبَّاد الأصنام ما عبدوا غيره، وما ثَمَّ موجود مُغايِر له البتَّة عندهم، وهذا منتهى سُلوك هؤلاء الملحِدين.

وأكثر هؤلاء الملاحدة والقائلين بوحدة الوجود يقولون: إنَّ فرعون أكمَلُ من موسى، وأنَّ فرعون صادقٌ في قوله: أنا ربُّكم الأعلى؛ لأنَّ الوجود فاضل ومفضول، والفاضل يستحقُّ أنْ يكون ربَّ المفضول، ومنهم مَن يقول: مات مؤمنًا، وأنَّ تغريقه كان ليغتسل غُسل الإسلام".

---

[17] "حياة محمد": ص 189، ط الثانية.

[18] ص 521، ط الهند.

وهكذا نرى أنَّ هذه العقيدة الزائفة تُصادِم نصوصَ الدين القطعيَّة، ولا تُوافِق شيئًا من الكتاب والسُّنَّة النبوية، وأنَّ العقيدة الإسلاميَّة السمحة براءٌ من مذهب وحدة الوجود.

وتفسير الإسراء والمعراج بهذه الفِكرة يقتَضِي إنكارهما على حسَب ما جاء به القُرآن والسنَّة الصحيحة المشهورة، فليس هناك إسراءٌ حقيقةً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بذات النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وليس هناك عُروجٌ بالنبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - من بيت المقدس إلى السماوات السبع، ولا صلاة بالأنبياء ولا لقاء، ولا تسليم ولا تكليم.

وما الداعي إلى ذلك ما دام الكون كله قد اجتمع في روح النبي كما قال صاحب هذا الرأي، فالمسجد الحرام والأقصى في روحه، والسماوات وما فيهن في روحه!

ثم ما الداعي إلى كلِّ هذا التكلُّف والإغراب من الدكتور هيكل - رحمه الله - في فهْم نُصوصٍ صريحة جاءَتْ بلسانٍ عربي مبين.

والإسراء والمعراج كما جاء بهما القُرآن والأحاديث الصحيحة أقرب مَنالاً وأشدُّ استِساغةً لعقول الناس لهما ممَّا ذهب إليه.

ولو جلست زمانًا لتُفهِّم رجلاً أميًّا أو متعلمًا بالإسراء والمعراج على ما رأى الدكتور ما أنت بمستطيعٍ إفهامه هذه الألغاز والطلاسم التي حاوَل بها إحداثَ رأيٍ جديد لا يُدرَى سبق إليه أم لا؟

وهل تصويرُ الإسراء والمعراج بهذا التصوير إلاَّ إشكالٌ على عُقول الكثْرة من الناس، ومخاطبة لهم بما لا تبلغه عقولهم ومَداركهم، وقد أُمِرنا أنْ نحدِّث الناس بما يعقلون وأن نَدَعَ ما يُنكِرون، وفي الحكم الذهبيَّة عن الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: "ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلُغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم".

الحق أنَّ الإغراب على القرَّاء بمثل هذه الأفكار المسمومة تشكيكٌ لهم في عَقائدهم الصحيحة، وتسميمٌ لعقولهم بالآراء الزائفة، والحقُّ أبلجُ واضحٌ لا يحتاج إلى تكلُّف وتعمُّل وتفلسُف من غير داعٍ {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: 86].

متى كان الإسراء والمعراج؟

يَكادُ يجمع العلماء المحقِّقون على أنَّ الإسراء والمعراج كانا بعد البَعثة المحمديَّة، وأنهما كانا في اليقَظَة لا في المنام.

وقد تظاهرت على هذا الرواياتُ المُتَكاثِرة في كتب الحديث المعتمَدة المشهورة، وكتب السِّيَرِ الموثوق بها.

وما رُوِي من أنهما كانا قبلَ أنْ يُوحَى إليه، أو أنهما كانا منامًا كما في حديث شريك بن عبدالله[19] عن أنس فهو غلط من شريك، وقد خالَف فيه شريكٌ أصحابَ أنس في إسناده[20]، ومتنه بالتقديم والتأخير، والزيادة المنكرة، وأشدُّ أوهامه - أغلاطه - قولُه: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلةَ أسرى برسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - من مسجد الكعبة أنْ جاءه ثلاثةُ نفرٍ قبل أنْ يُوحَى إليه".

والإمام البخاري قد أخرج في "صحيحه" الرواية الصحيحة عن أنس في عدَّة مواضع من كتابه، وذكر أيضًا هذه الرواية التي وقَع فيها الغلط، ولعلَّ ذلك ليُنبِّهنا إلى ما فيها من غلط، وللإمام البخاري في سوق الروايات والمتون المكرَّرة شُفوف نظَر، ومقاصد دقيقة لا يَقِفُ عليها إلا مَن أطال النظر في هذا الكتاب الجليل.

وقد نبَّه على غلط شريك بن عبدالله في روايته الإمامُ مسلم بن الحجاج في "صحيحه" فقد قال بعد ذكر سند رواية شريك: "وساق الحديث بقصته نحو حديث ثابت البناني، وقدم فيه شيئًا وأخَّر، وزاد ونقص"[21].

وأنكر ما في حديث شريك من أوهام أيضًا الأئمَّة: الخطابي، وابن حزم، والقاضي عياض، والنووي وغيرهم.

وقال الحافظ عبدالحق في كتابه "الجمع بين الصحيحين" بعد ذِكر رواية شريك: "هذا الحديثُ بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس، زاد فيه زيادةً مجهولة، وأتى فيه بألفاظٍ غير معروفة، وقد روَى حديث الإسراء جماعةٌ من الحفَّاظ المتقِنين، والأئمَّة المشهورين؛ كابن شِهاب - أي: الزهري - وثابت البناني، وقتادة - يعني: عن أنس - فلم يأتِ أحدٌ بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث".

في أيِّ سنةٍ وشهر كان الإسراء والمعراج؟

وقد اختلفا في أيِّ سنةٍ كانا، وفي أيِّ شهر؟

قال البعض: إنهما كانا قبلَ الهجرة بسنةٍ، وإلى هذا ذهب الزهري وعروة بن الزبير وابن سعد، وادَّعى ابن حزم الإجماعَ على هذا.

وقيل: قبل الهجرة بسنتين، وقيل بأكثر من سنتين، والذي عليه الأكثرون والمحقِّقون أنهما كانا في شهر ربيع الأول وقيل: في شهر ربيع الآخر، وقيل: في شهر رجب، وهو المشهور بين الناس اليوم، والذي تركَنُ إليه النفس بعد البحث والتأمُّل أنهما كانا في ربيعٍ الأول في ليلة الثاني عشر منه أو السابع عشر منه.

---

[19] شريك بن عبدالله بن أبي نمر، تابعي مدني وهو أكبر من شريك بن عبدالله النخعي القاضي.

[20] يعني: أصحابه الذين روَوْا له.

[21] "صحيح مسلم بشرح النووي" ج 2 ص 217.

وقد ذكَر ابن كثيرٍ في "البداية والنهاية" أثَرًا عن جابر وابن عباس يشهَدُ لذلك قالا: "وُلِدَ رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - عامَ الفيل يومَ الاثنين الثاني عشر من ربيعٍ الأول، وفيه بُعِثَ، وفيه عُرِجَ به إلى السماء، وفيه هاجر".

فربيعٌ الأوَّل من عمر الدعوة الإسلاميَّة بمنزلة الربيع من الزمان، قال ابن كثير بعد ذكر الرواية السابقة: "وقد اختاره الحافظ عبدالغني بن سرور المقدسي في "سيرته"، وقد أورد هنا حديثًا لا يصحُّ سنده ذكرناه في فضائل شهر رجب أنَّ الإسراء كان ليلة السابع والعشرين منه، والله أعلم".

ثم قال: "ومن الناس مَن يَزعُم أن الإسراء كان أوَّل جمعة من رجب وهي ليلة الرغائب الذي أحدث فيها الصلاة المشهورة، ولا أصل لذلك، والله أعلم".

إمكان الإسراء والمعراج:

تَكاد تنحَصِر شُبَهُ المخالفين في الإسراء والمعراج بالجسد في استِبعاد الذَّهاب من مكَّة إلى بيت المقدس ثم الصُّعود إلى السماوات العُلى ثم الرُّجوع من حيث أتى في جُزءٍ من الليل، وفي أنَّ القرآن الكريم لم يَذكُر المعراج كما ذكَر الإسراء، وفي أنَّ المعراج يترتَّب عليه الخرق والالتئام في الأفلاك والسماوات، وذلك مستحيل.

وفي أنَّ الطبقة الهوائيَّة المحيطة بالكرة الأرضيَّة محدودةٌ بثلاثمائة كيلو متر تقريبًا، فمَن جاوزها صار عرضةً للموت المحقَّق؛ لعدم وجود الهواء الذي لا بُدَّ منه للحياة. وهي شُبَهٌ لا تثبُت أمامَ البحث العلمي الصحيح.

فالإسراء والمعراج أمران ممكنان عقلاً، أخبر بهما الصادق المصدوق - صلَّى الله عليه وسلَّم - في القرآن الكريم المتواتر، وفي الأحاديث الصحيحة المشهورة، فيجبُ التصديق بهما، ومَن ادَّعَى استحالتهما فعليه البيان، وهيهات ذلك! وكونهما مُستَبعدين عادةً لا ينهض دليلاً ولا شبه دليلٍ على الاستحالة، وهل المعجزات إلا أمور خارقة للعادة كما قدَّمنا في صدر هذه الرسالة؟ ولو أنَّ كلَّ أمرٍ لا يجرى على سنن العادة جديرٌ بالإنكار لما ثبتت معجزةُ نبيٍّ من الأنبياء.

ثم ما قول المنكِرين لمثْل هاتين المعجزتين فيما صنَعَه البشر من طائرات نفَّاثة وصواريخ جبَّارة تقطع آلاف الأميال في زمن قليل، فإذا كانت قُدرة البشر استطاعت ذلك أفيستَبعِدون على مُبدِع البشر وخالق القُوَى والقُدَر أنْ يُسخِّر لنبيِّه "بُراقًا" يقطَع هذه المسافة في زمن أقل من القليل؟!

ولست أقصد بهذا أنَّ الإسراء والمعراج من جنس ما يقدر عليه الناس، فحاشا لله أنْ أريد ذلك، وإنما أردت تقريبهما لعقول مَن ينكرونهما بما هو مُشاهَد ملموس.

وأمَّا شُبهة أنَّ المعراج لم يُذكَر في القرآن كما ذُكِرَ الإسراء فيدفعها ما قدَّمته من أنَّ المعراج أُشِيرَ إليه في القرآن وذُكِرَ، وإن لم يكن ذلك تصريحًا، ولو سلَّمنا عدم ثبوته في القرآن فلا ينبغي أنْ يكون ذلك سببًا للإنكار، فما الأحاديث إلا مبينة

للقُرآن ومُتمِّمة له وهي الأصلُ الثاني من أصول التشريع في الإسلام، ومعرفة الحلال من الحرام، والحقِّ من الباطل، والهُدى من الضلال، وإثبات الآيات والمعجزات، ولو أنَّنا قصرنا الدين ومسائله على القُرآن الكريم فحسْب لفرَّطنا في كثيرٍ من الأحكام والآداب، والآيات الواضحات الدالَّة على نبوَّة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا شُبهة أنَّ المعراج يترتَّب عليه الخرق والالتئام وهو مستحيلٌ، فنظريَّةٌ قديمة عفَا عليها الزمان، وأبطلَتْها النظريَّات العلميَّة الحديثة، فقد انتهى بحثُ العلماء إلى أنَّ الكون كان قطعةً واحدة، ثم تناثَرتْ أجزاؤه. وانفصَلَ بعضها عن بعضٍ حتى غَدا من ذلك العالَم الأرضي والعلوي.

وأعتقد أنَّ هذه المسألة أصبحَتْ غيرَ ذات موضوعٍ بعد التقدُّم العظيم، والخطوات الواسعة التي خَطاها العُلَماء في غزْو الفَضاء والتنقُّل بين الأجواء والدوران حول الأرض، وها هم اليوم يُفكِّرون في إنْزال إنسان على وجْه القمر، ومَن يدري؟ فلعلَّهم بعد الوصول إلى القمر يُفكِّرون في الوصول إلى غيره من الكواكب والأفلاك، ولا نَدري ماذا سيتمخَّض عنه الغد، إنْ شاء الله.

وإنِّي لأنتَهِزُ هذه المناسبة لأؤكِّد أنَّنا - معشرَ عُلَماء الإسلام - نُرحِّب بتقدُّم العلوم والمعارف الكونيَّة، وأنَّنا ندعو إلى الازدِياد من هذه العُلوم؛ لأنَّنا على يقينٍ أنَّ تقدُّم العلوم والكُشوف الكونيَّة لا يزيدُ الإسلامَ إلا قوَّة، والقُرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة الصحيحة إلا ثَباتًا واقتِناعًا للعقل بهما.

وكيف لا نُرحِّب ولا ندعو وهذا قولُ الحقِّ - تبارك وتعالى - نقرَؤُه صَباحًا ومساءً، ونعتَقِدُ صِدقه وحقيقته: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53]، بل أنا على ذلك من الشاهدين.

وإذا جازَ لأُناسٍ عاشُوا في أزمانٍ ماضيةٍ لم تتقدَّم فيها العُلوم الفلكيَّة والكونيَّة استبعادُ الإسراء والمعراج، فلا يجوزُ ذلك قطُّ ممَّن عاشَ في عصْرنا ورأى وسمع بالكثير من المخترعات والمُستكشَفات التي كانَتْ تُعَدُّ فيما مَضَى ضَرْبًا من الخيال والمحال.

وأمَّا شبهة أنَّ الهواء ينعدم على بُعدٍ خاص فهي لا تُبرِّر الإنكارَ، فهاهُم الغوَّاصون يمكُثون تحتَ أعماق الماء الساعات الطِّوال؛ اكتفاءً بما معهم من هَواءٍ مخزونٍ يتنفَّسون منه.

وهاهُم روَّاد سفن الفضاء قد تغلَّبوا على هذه المشكلة بل وعلى ما هو أشكل منها وأعظم خَطَرًا، ويختزنون معهم في سُفُنِهم من الهواء ما يَكفِيهم للتنفُّس ويحفَظُ عليهم حَياتهم أيَّامًا لا ساعات.

فإذا تمكَّن الإنسانُ - على عجزه وقُدرته المحدودة - أنْ يتغلَّب على ذلك، أفنستَبعِدُ على قُدرة الله أنْ يحفظ حياةً فيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء بأيِّ وسيلةٍ من الوسائل؟ ومن بعد ذلك كله نقول كلمة الإيمان:

إنَّ الله - سبحانه - الذي خلق السماوات والأرضيين محلقة في الفَضاء بلا عمد، وأمسكهما أنْ تزولاَ وتسقُطَا، وأبدعَهُما أيَّما إبداع، وربَط الأسباب بالمسبَّبات، وأوجَدَ نَوامِيسَ الكائنات، وعلم ما يحتاجُ إليه كلُّ كائنٍ حيٍّ من إنسانٍ أو حيوان أو نبات، وقدر لكلِّ ما يحفظ له حَياته، لَقادرٌ أنْ يُسرِي بنبيِّه من مكَّة إلى بيت المقدس، ثم يعرج به إلى سِدرة المُنتَهى في جزءٍ من الليل، وأنْ يحفظ عليه حياته في عُرُوجِه من الأرض إلى السماء.

الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج:

ولقد روَى أحاديثَ الإسراء والمعراج كثيرٌ من الصَّحابة - رضوان الله عليهم - وتلقَّاها عنهم الرُّواة العُدول الضابِطُون، وخرَّجَها أئمَّة الحديث في كتبهم؛ كالأئمَّة: البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، وابن جريرٍ الطبري، وغيرهم، وذكَرَها الإمامان: محمد بن إسحاق وابن هشام في سيرتيهما.

قال العلاَّمة ابن كثير في "تفسيره": قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في "التنوير في مولد السراج المنير" بعد أنْ ذكَر حديثَ الإسراء والمعراج من طريق أنس وحكم عليه فأفاد وأجاد: "قد تواترت الرِّوايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيدٍ الخدري، وابن عباس، وشدَّاد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبدالرحمن بن قرظ، وأبي حبة[22]، وأبي ليلى الأنصاريين، وعبدالله بن عمرو بن العاصِ، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصُهَيب الرومي، وأم هانئ - بنت أبي طالب - وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق - رضي الله عنهم أجمعين - منهم من ساقَه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع من المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحيح فحديث الإسراء أجمَعَ عليه السلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: 32][23].

وقد تكفَّل بذِكر غالب الروايات الواردة في الإسراء والمعراج الإمامُ ابن كثير في "تفسيره"، فمَن أراد استقصاءَ الروايات فليَرجِعْ إليه.

---

[22] أبو حَبَّة: بفتح الحاء وبالباء المشدَّدة على المشهور، وعند القابسي بمثناة، وغلط في ذلك، وذكره الواقدي بالنون.

[23] تفسير ابن كثير والبغوي: ج 5 ص66.

وسأكتَفِي هنا بذِكْر أوثق الرّوايات وأصحِّها وهي التي اتَّفق فيها الإمامان الجليلان: البخاري ومسلم، أو انفرد بها أحدُهما.

رواية البخاري في "صحيحه"[24]:

قال البخاري: حدثنا هُدْبةُ بن خالد، قال: حدثنا همام بن يحيى، قال: حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة - رضي الله عنهما - أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - حدَّثهم عن ليلةَ أُسري به قال: ((بينما أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر[25] - مضطجعًا إذ أتاني آتٍ فقدَّ[26])) قال - أي: قتادة - وسمعته يقول: فشقَّ ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود[27]: ما يعني به؟ قال: من ثُغرة نَحرِه إلى ثنَّته[28] ((فاستخرج قلبي، ثم أُتِيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوءة إيمانًا وحِكمة[29]، فغُسِلَ قلبي ثم حُشِي ثم أُعِيدَ، ثم أُتِيتُ بدابَّة دُون البَغل، وفوقَ الحمار أبيض))، فقال له الجارود: هو البراق[30] يا أبا حمزة - كنية أنس؟ قال أنس: نعم، ((يضع خطوه عند أقصى طَرْفِه[31]، فحُمِلتُ عليه، فانطَلَقَ بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح[32] فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟[33] قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنِعمَ المجيء جاء، ففتح، فلمَّا خلصت فإذا فيها آدمُ، فقال: هذا أبوك آدم فسَلِّمْ عليه، فسلَّمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح[34].

ثم صعَد بي حتى أتى السماء الثانية فاستَفتَح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلمَّا خلصت إذا يحيى وعيسى - عليهما السلام - وهما ابنا الخالة[35].

---

[24] انظر: باب المعراج من "صحيح البخاري" ج5 ص66.

[25] الحطيم: هو الحجر على الصحيح، والراوي لَمَّا لم يتأكَّد أيَّ اللفظين قال، ذكرها على صِيغة الشكِّ ليخرج من العُهدة، وهي أمانةٌ في النقل مشكورةٌ.

[26] القدُّ: هو القطع.

[27] لعله الجارود بن أبى سبرة البصري صاحب أنس وأحد الرُّواة عنه.

[28] الثُّغرة: المكان المنخفِض بين الترقوتَيْن، والثُّنَّة بضَمِّ الثاء وتشديد النون: ما تحت السرَّة.

[29] يعني: مملوءة بشيءٍ يترتَّب عليه زيادةُ الإيمان وكمالُ الحكمة.

[30] بضمِّ الباء وتخفيف الراء مشتقٌّ من البرق؛ إذ سرعته في سيره مثل سرعة البرق في لمعانه.

[31] يعني: عند منتهى بصره، وما أشدَّ سرعةَ مَن كان على هذا الحال!

[32] يعني: طلب الفتح.

[33] يعني: أوقد أرسل إليه للعروج إلى السماء، وأمَّا أصل بعثته فمشهورةٌ عند الملأ الأعلى معروفة لهم.

[34] اقتصر الأنبياء الذين لقيَهُم في السماء على وصْفه - صلَّى الله عليه وسلَّم - بصفة الصَّلاح لأنَّ فيها جماعَ الخير كله، والصالح هو: الطيِّب في نفسه الذي يقومُ به عليه من حُقوق الله وحُقوق العباد.

[35] لأنَّ أم كلِّ واحد منهما خالةً للآخَر، وهذا على أنَّ مريم وإيشاع أم زكريا أختان، وقيل: إنَّ إيشاع خالة مريم فيكون في العبارة تسامحٌ، ولا يَزال العُرف عندنا في مصر يعتَبِر خالة الأم خالة للابن.

قال: هذا يحيى وعيسى - عليهما السلام - فسلَّم عليهما، فسلَّمتُ، فردَّا ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبيِّ الصالح.
ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستَفتَح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلمَّا خلصت إذا يوسف، قال: هذا أخوك يوسف فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.
ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستَفتَح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلمَّا خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.
ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستَفتَح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلمَّا خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.
ثم صعَد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستَفتَح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلمَّا خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلمَّا تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غُلامًا[36] بُعِثَ بعدي يدخُل الجنَّة من أمَّته أكثر ممَّن يدخُلها من أمَّتي.
ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستَفتَح جبريل قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّد، قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ففتح، فلمَّا خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه قال: فسلَّمت عليه، فردَّ السلام قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.
ثم رُفِعتُ إلى سِدرة المنتهى[37] فإذا نبقها مثل قلال هَجَر[38]، وإذا ورقها كآذان الفيلة[39]، قال: هذه سِدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران

---

[36] لم يُرِدْ موسي - عليه السلام - التقليل من شأن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وحاشا لله أنْ يريدَ ذلك، وإنما أراد صِغَرَ السنِّ بالنسبة لِمَن كان أكبرَ منه سنًّا من الأنبياء، ومع هذا فقد أعطاه الله على صِغَرِ سنِّه، وقِصَرِ مدَّته ما لم يُعطِ أحدًا ممَّن هو أسنُّ منه وأطوال عمرًا وزمنًا.
[37] سُمِّيتْ بذلك لأنها ينتهي إليها علمُ كلِّ نبي مُرسَل، وكلِّ ملك مُقرَّب ولم يجاوزها أحدٌ إلا نبينا - صلَّى الله عليه وسلَّم.
[38] قلال: جمع قُلَّة وهي الجرَّة، والنبق: الثمر؛ يعني: أنَّ ثمرها في الكِبَرِ مثلُ القلال، وكانت قلال هَجَر معرفة عند المُخاطَبين بهذا الحديث؛ فلذلك وقَع التمثيل بها وهَجَر، بفتح الهاء والجيم بلدٌ قُرب المدينة.

ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أمَّا الباطنان فنهران في الجنة[40]، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات[41]، ثم رُفِعَ لي البيت المعمور ثم أُتِيتُ بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال[42]: هي الفطرة[43] التي أنتَ عليها وأمَّتك، ثم فُرِضَتْ عليَّ الصلوات خمسين صلاةً كلَّ يوم، فرجعت فمرَرْت على موسى، فقال: بِمَ أُمِرت؟ قال: أُمِرتُ بخمسين صلاةً كلَّ يوم، قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاة كلَّ يوم، وإنِّي قد جرَّبتُ الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فأرجِعْ إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمَّتك فرجعت، فوضع عنِّي عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عنِّي عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عنِّي عشرًا فرجعتُ إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمِرتُ بخمس صلواتٍ كلَّ يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال: بِمَ أُمِرتَ؟ قلت بخمس صلوات كلَّ يوم قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمس صلوات كلَّ يوم، وإنِّي قد جرَّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمَّتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكنْ أرضى وأُسلِّم، قال: فلمَّا جاوزت ناداني مُنادٍ[44]: أمضيت فريضتي وخفَّفت عن عبادي)).

رواية الإمام مسلم في "صحيحه":

وإليك رواية الإمام مسلم في "صحيحه" المتَّفِقة مع رواية البخاري.

قال الإمام مسلم: حدثنا محمد بن المثنَّى (قال): حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك - لعلَّه قال: عن مالك بن صعصعة؛ رجل من قومه - قال: قال نبيُّ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((بينا أنا عند البيت بين النائم واليَقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدُ الثلاثة بين الرجلين، فأتيت، فانطلق بي، فأتيت بطستٍ من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح[45] صدري إلى كذا وكذا))، قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه، ((فاستخرج قلبي فغُسل بماء زمزم ثم أُعِيد مكانَه، ثم حُشِي إيمانًا وحكمةً، ثم أُتِيتُ بدابَّة أبيض يُقال له: البراق؛ فوق الحمار

---

[39] يعني: في الشَّكل والكبر.

[40] هما: الكوثر والسلسبيل.

[41] سيأتي توجيهُ ذلك بما يطمئنُّ إليه قلبك ويقتنع به عقلك.

[42] القائل هو جبريل - عليه السلام.

[43] عبَّر عن اللبن بالفطرة لأنَّه أوَّل ما يدخُل بطن المولود ويشقُّ أمعاءه، وهو الغِذاء الذي لم يكنْ يصنَعُه صانعٌ غير الله، والغِذاء الكامل المستوفي للعَناصر التي يحتاجُ إليها الجسم في بِنائه ونموِّه، مع كونه طيِّبًا سائغًا للشاربين.

[44] المنادي هو الله - سبحانه - إذ هذا الكلام لا يصدر إلا منه - سبحانه - وهذا من أقوى الأدلَّة على أنَّ الله - سبحانه وتعالى - كلَّم نبيَّه ليلة المعراج بغير واسطة.

[45] يعني: شقَّ.

ودُون البغل، يضع خطوه عند أقصى طرْفه، فحُمِلت عليه ثم انطلقنا حتى أتَيْنا السماء الدنيا فاستفتح جبريل - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قال: ففتح لنا وقال: مرحبًا به ولنِعمَ المجيءُ جاء، قال: فأتينا على آدم - صلَّى الله عليه وسلَّم - وساق الحديث بقصَّته، وذكر أنَّه لَقِيَ في السماء الثانية عيسى ويحيى - عليهما السلام - وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون - صلَّى الله عليهم - قال: ثم انطلقنا حتى انتهَيْنا إلى السَّماء السادسة، فأتيتُ على موسى - عليه السلام - فسلَّمتُ عليه، فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلمَّا جاوزته بكى، فنُودِي: ما يُبكِيك؟ قال: ربِّ، هذا غلامٌ بعثته بعدي يدخل من أمَّته الجنَّة أكثر ممَّا يدخل من أمَّتي قال: ثم انطلقنا حتى انتهَيْنا إلى السماء السابعة فأتيت على إبراهيم...)) وقال في الحديث.

وحدَّث نبيُّ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرج من أصلها[46] نهران ظاهران، ونهران باطنان، ((فقلت: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أمَّا النهران الباطنان فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رُفِعَ لي البيت المعمور فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يَدخُله كلَّ يومٍ سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخِر ما عليهم[47] ثم أُتِيتُ بإناءين: أحدهما خمر والآخر لبن، فعُرِضَا عليَّ فاخترت اللبن فقيل: أصبتَ، أصابَ الله بك، أمَّتك على الفطرة[48].

ثم فرضت عليَّ كلَّ خمسون صلاة" ثم ذكر قصَّتها إلى آخر الحديث[49].

يعني: على النحو الذي ذُكِرَ في رواية البخاري، وقد تبيَّنت أيها القارئ إلى أيِّ حدٍّ اتَّفق الرُّواة على الروايتين على طولهما، وأنَّه لم يحصل اختلاف إلا في ألفاظٍ قليلة، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على قوَّة ذاكرة الرواة المسلمين وحِفظهم النادر، وتدقيقهم البالغ وأمانتهم الفائقة.

رواية أخرى للإمام مسلم

قال الإمام مسلم في "صحيحه":

---

[46] الضمير بعودُ على سِدرة المنتهى كما في رواية البخاري السابقة، ورواية مسلم هذه يغلب عليها الاقتصار والإيجاز؛ لأنَّه ذكَر روايةً قبلَ هذه في "صحيحه" عن أنسٍ من طريق ثابت البناني، وهي أتَمُّ من هذه وأوفى، وسأذكُرها.

[47] يعني: آخِر ما عليهم من دخوله، وهذا الوصف يدلُّ على كثْرة ملائكة الله الفائقة، وأنَّه لا يعلم عدَّتهم إلا هو.

[48] أصبت؛ أي: الفطرة، أصاب الله؛ يعني: أراد بك الفطرة والخير والفضل، وأمَّتك تبع لك على الفطرة.

[49] انظر: "صحيح مسلم بشرح النووي" ج2 ص223-225.

حدثنا شيبان بن فروخ (قال) حدثنا حماد بن سلمة (قال) حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك - رضِي الله عنه - أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((أُتِيتُ بالبراق وهو دابَّة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل يضع حافِرَه عند مُنتَهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيتُ بيت المقدِس قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخَلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل - عليه السلام - بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبنٍ، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة[50].

ثم عرج بنا إلى السماء...)) الحديث بطوله[51].

ثم ساق مسلمٌ الحديثَ على نحو ما ذكَرَه البخاري في روايته التي ذكَرْناها أولاً وفي آخِرها: ((فلم أَزَلْ أرجِع بين ربي - تبارك وتعالى - وبين موسى - عليه السلام - حتى قال: يا محمد، إنهنَّ خمس صلوات كلَّ يوم وليلة، لكلِّ صلاةٍ عشرٌ - يعني: حسنات - فذلك خمسون صلاة، ومَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبت له حسنة، فإنْ عملها كتبت له عشرًا، ومَن هَمَّ بسيئةٍ ولم يعمَلْها لم تكتبْ شيئًا، فإنْ عملها كُتِبت سيِّئة واحدة)).

وقد تكفَّلت رواية مسلم هذه بذِكر ما أُوجِز في الرواية الأولى من إتيانه - صلَّى الله عليه وسلَّم - بيتَ المقدس، والصلاة فيه ركعتين، وعرض جبريل على النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - اللبن والخمر قبل العُروج، وهكذا نرى أنَّ الروايات يُكمِّل بعضها بعضًا، وما تركَتْه إحداها ذكرَتْه الأخرى، وأنَّنا نخرُج من جملة الرِّوايات في هذا بالبناء الكامل لقصَّة الإسراء والمعراج، وإليك هذه القصة.

قصة الإسراء والمعراج

وقد استقَيْتُها من مجموع الرِّوايات الصحيحة والحسنة المفرَّقة في كتب الحديث والسير، وقد أخذتُ على نفسي أنْ أعرض عن الموضوع والضعيف، وها هي خُلاصة القصة:

ينما كان النبي محمَّدٌ - صلَّى الله عليه وسلَّم - بائتًا ذات ليلة[52] غرَّاء مقمرة ببيت السيدة أم هانئ بنت عمِّه أبي طالب، بين عمه حمزة المغوار، وابن عمِّه جعفر

---

[50] في هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم أنَّ عرْض اللبن والخمر كان في الأرض قبلَ العُروج، وفي الحديث الذي اتَّفق عليه البخاري ومسلم وهو الذي ذكَرْناه آنِفًا أنَّ ذلك كان بعدَ العُروج ومجاوزة السماوات السبع، وليس هذا باضطرابٍ ولا تناقُض، وإنما هو محمول على تعدُّد العرض على النبي فمرَّة في الأرض ومرَّة في السماء، وتكون كلٌّ من الروايتين قد ذكرت ما تُرِكَ في الأخرى اقتصارًا من الراوي على البعض وترك البعض أو نسيانًا، ومهما يكنْ من شيءٍ فلا يُعتَبر ذلك عد أهل الفنِّ مطعنًا قي الحديث.

[51] انظر: "صحيح مسلم بشرح النووي" ج 2 ص 209- 215، ط حجازى.

[52] هذا على ما اخترته ورجَّحته من أنَّ الإسراء والمعراج كانا في ربيع الأوَّل ليلة الثاني عشر أو

الطيَّار، إذ فُرِجَ سقفُ البيت وهو مضطجعٌ بين النائم واليقظان، ونزَل عليه ثلاثةُ نفرٍ من الملائكة الأطْهار، جبريل ومعه اثنان من الخيرة الأبرار، فاحتمَلُوه حتى أتَوْا به الحجر بالمسجد الحرام، فشقَّ جبريل - عليه السلام - صدرَه الشريف، وأتى بطستٍ من ذهب مملوء بماء زمزم الميمون المبارَك، فغسل به قلبَه الشريف، ثم أفرغ في قلبه ينابيع الإيمان والحِكمة؛ استِعدادًا لما يُشاهِده في هذه الليلة المباركة من الآيات الكونيَّة، ولما سيُلقَى عليه من أنواع الفيوضات الإلهيَّة.

ثم جاء له بالبراق، وهو خلقٌ من مخلوقات الله العجيبة على صُورة الحيوان، لكنَّه ذو سرعةٍ فائقة وقُدرةٍ خارقة على قطع المسافات الشاسعة كالبرق، بل هو أشدُّ منه في الإسراع، حتى أنَّه ليضع قدَمَه عند منتهى الإبصار، وأخلِقْ بمِثله أنْ يَطوِى الفَيافِي والقِفار، في ساعةٍ من ليل أو نهار.

فركبه رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فسارَ به وهو مزهوٌّ بهذا الشرَف الرفيع، وجبريلُ الأمين آخِذٌ بالرِّكاب الكريم، وفي الطريق مَرَّ الأمين والأمين[53] بأرضٍ ذات نخلٍ وزروع، فقال جبريل للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: انزِل فصَلِّ، فنزل فصلَّى، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: ((الله أعلم))، قال: صليت بطَيْبة[54]، وإليها المهاجرة، ثم سارَا، فقال جبريل للنبي: انزِل فصَلِّ، فنزل فصلَّى، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: ((الله أعلم))، قال لقد صليت بطور سيناء حيث كلَّم الله موسى تكليمًا، ثم سارا، فقال جبريل للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: انزِل فصَلِّ، فنزل فصلَّى، فقال له جبريل: أتدري أين صلَّيت؟ قال: ((الله أعلم))، قال: لقد صليت ببيت لحم حيث وُلِد عيسى - عليه السلام[55].

وما زال البراق يَطوِى الأرض طيًّا، حتى أتى بيت المقدس فربَطَه رسولُ الله بالحلقة التي كان يربطه بها الأنبياء قبله، ثم دخَل المسجد الأقصى فوجد الأنبياء في استِقباله؛ ترحيبًا بالقادم الكريم، ثم أُقِيمت الصلاة، فتدافعوا أيُّهم يُصلِّي إمامًا، فأخَذ جبريل بيد النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقدَّمَه إمامًا، فصلَّى بهم ركعتين[56]، فلمَّا قضيت الصلاة وقد بلَغ العطش من النبي أشُدَّه، جاءَه جبريل بإناءٍ من لبن، وإناءٍ

السابع عشر منه.

[53] الأمين الأول: هو نبيّنا محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - وقد عُرِف بذلك حتى قبل البَعثة، والأمين الثاني: هو جبريل؛ لأنَّه أمين الوحي.

[54] طَيْبة هي المدينة المنورة، وإليها كانت هجرة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم.

[55] ورد ذكر الصلاة في هذه المواطن الثلاثة في "سنن الترمذي".

[56] في "صحيح مسلم": ((وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فإذا موسى قائمٌ يُصلِّي فإذا رجلٌ ضرب جعد كأنَّه من شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم - عليه السلام - قائمٌ يُصلِّي أقرب الناس شبهًا به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم - عليه السلام - أشبه الناس به صاحبكم - يعني: نفسَه، صلَّى الله عليه وسلَّم - فحانت الصلاة فأممتهم))؛ "مسلم بشرح النووي" ج 2 ص 238.

من خمر، فاختار اللبن، فقال له جبريل: اخترت الفطرة ولو اخترت الخمر لغوَتْ أمَّتك.

وإنَّه لَتشريفٌ وتكريمٌ أنْ يحشد الله - سبحانه - أنبياءه ورسله، للقاء خاتمهم وآخِرهم، فما عرفَتِ الدنيا حفلاً أكرم من هذا الحفل، ولا قادمًا أشرف من هذا القادم، وإنَّه لمقامٌ يعجز عنه وصْف الواصِفين، مهما أُوتوا من بلاغة ولسان مبين.

ثناء الأنبياء على ربهم:

وفي هذا المقام المشهود واللقاء الموعود أثنَى بعضُ الأنبياء على ربهم[57] بمحامدَ هو أحقُّ بها وأهلها، وآلاءٍ تمنَّن عليهم وعلى أممهم بها.

ثناء الخليل:

فقال إبراهيم الخليل - عليه السلام -: الحمد لله الذي اتَّخذني خليلاً، وأعْطاني مُلكًا عظيمًا، وجعلَنِي أمَّةً قانتًا يُؤتَمُّ بي، وأنقذَنِي من النار، وجعلها عليَّ بردًا وسَلامًا.

ثناء الكليم:

وأثنى موسى - عليه السلام - على ربِّه فقال: الحمد لله الذي كلَّمني تكليمًا، وجعل هلاك آل فرعون، ونجاةَ بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمَّتي قومًا يَهدُون بالحقِّ وبه يَعدِلون.

ثناء داود:

وأثنى داودُ - عليه السلام - على ربِّه فقال: الحمد لله الذي جعَل لي مُلكًا عظيمًا، وعلَّمني الزَّبور، وألان لي الحديد، وسخَّر لي الجبال يُسبِّحن والطير، وأعطاني الحكمةَ وفَصْلَ الخِطاب.

ثناء سليمان:

وأثنى سُليمان - عليه السلام - على ربِّه فقال: الحمد لله الذي سخَّر لي الرِّياح، وسخَّر لي الشياطين يعملون لي ما شِئتُ من محاريب وتماثيل وجِفانٍ كالجواب، وقُدورٍ راسيات، وعلَّمني منطقَ الطير، وآتاني من كلِّ شيءٍ فضلاً، وسخَّر لي جُنودَ الشياطين، والإنس والطير، وفضَّلني على كثيرٍ من عِباده المؤمنين، وآتاني مُلكًا عظيمًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، وجعَل مُلكي مُلكًا طيِّبًا ليس عليَّ فيه حساب.

[57] هذا الثناء ورَد في رواية أبي هريرة، وهي التي رَواها الإمام ابن حرير الطبري في "تفسيره".

ثناء عيسى:

وأثنى عيسى - عليه السلام - على ربِّه - عزَّ وجلَّ - فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثَلي كمثَل آدم خلَقَه من ترابٍ ثم قال له: كُنْ، فيكون، وعلَّمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفُخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وجعلني أُبرِئ الأكمَهَ والأبرَص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهَّرني، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

ثناء محمد:

وأثنى محمد - صلوات الله وسلامه عليه - على ربِّه - عزَّ وجلَّ - فقال: ((كلُّكم أثنى على ربه، وأنا مثنٍ على ربي: الحمد لله الذي أرسَلَني رحمةً للعالمين، كافَّة للناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليَّ الفُرقان فيه بيانٌ لكلِّ شيء، وجعل أمَّتي خير أمَّة أُخرِجت للناس، وجعل أمَّتي أمَّة وسَطًا، وجعل أمَّتي هم الأوَّلون وهم الآخِرون، وشرَح لي صدري، ووضَع عنِّي وِزري، ورفَع لي ذِكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا))[58].

فقال إبراهيم الخليل - عليه السلام -: بهذا فضلكم محمد - عليه الصلاة والسلام.

ما رآه النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في مَسراه:

لقد كان ليلة الإسراء والمعراج من الليالي الزَّهراء، فقد شاهَد النبي فيها سواء في مَسراه في الأرض، وعُروجه إلى السماء - ما شاء الله له أنْ يشاهد من الآيات والآلاء، وتملَّت العينان ممَّا رأى، و{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: 17]، ووعَى القلب الكبير ما رأَتْه العينان، و{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: 11]، وامتلأ بجلال الله وعظمته، ونُوره وتجلِّياته، وقد شاء الله أنْ تُضرَب الأمثالُ للنبي في هذه الليلة الميمونة ذات البركات، ووَراء هذه الأمثال ما وَراءها من العِبَر والعِظات، والإشارات والبشارات، وللأمثال عند بني الإنسان - ولا سيَّما العرب - شأنٌ وأي شأن، فهي تريك المعقول في صُورة المحسوس، والغائب في صور المُشاهَد، والمأمول المرتقَب في صُورة الواقع المحقَّق، وهي بما فيها من دقَّة التصوير، وسموِّ التعبير عن الغرض المقصود، تستَولِي على النُّفوس، وتهزُّ أوتار القلوب، فلا عجب أنْ ضُرِبت الأمثال للنبيِّ في مَسراه، وصُوِّرتْ تصويرًا دقيقًا مُعبِّرًا، يرى المشهد العجيب فيستفسر عنه من جبريل، فيُجِيب إجابةَ الحكيم، والمخبر عن ربِّ العالمين، وليكون من وَراء ذلك العِظَة لقومٍ يعقلون.

وإليك بعض هذه المشاهد المؤثرة المعبِّرة[59]:

---

[58] يعني: خاتمًا للأنبياء، وفاتحًا للشفاعة يوم القيامة.

[59] هذه المشاهد وردَتْ في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار ("فتح الباري" ج 7 ص 157).

1- فمن ذلك أنَّه رأى امرأةً حاسرةً عن ذراعيها، وعليها من كلِّ زينةٍ خلَقَها الله - تعالى - فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم يلتَفِتْ إليها فقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن هذه يا جبريل؟)) قال: تلك الدنيا، أمَا إنَّك لو أجبتَها لاختارَتْ أمَّتك الدنيا على الآخرة.

2- وأنَّه رأى قومًا يزرَعُون ويحصدون كلَّما حصَدُوا عاد الزرع كما كان، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء المجاهِدون في سبيل الله تُضاعَف لهم الحسنات بسبعمائة ضِعف؛ {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: 39].

3- وأنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - أتى على قوم تُرضَخ[60] رُؤوسُهم بالحجارة، كلَّما رُضِختْ عادت كما كانت، ولا يُفتَّر[61] عنهم من ذلك شيء فقال: ((من هؤلاء يا جبريل؟)) قال: هؤلاء الذين تتثاقل رُؤوسهم عن الصلاة.

4- وأنَّه أتى على قومٍ على أقبالهم[62] رقاعٌ وعلى أدْبارهم رِقاعٌ، يسرَحُون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكُلون الضَّريع والزَّقُّوم ورضف[63] جهنَّم فقال: ((مَن هؤلاء يا جبريل؟)) قال: هؤلاء الذين لا يُؤدُّون زكاة أموالهم المفروضة[64] وما ظلمهم الله شيئًا؛ {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46].

5- وأتى على قومٍ بين أيديهم لحمٌ طيب نَضِيج، ولحم آخر نيء[65] قذر خبيث، فجعلوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال: ((مَن هؤلاء يا جبريل؟)) فقال: هذا الرجل من أمَّتك تكون عنده المرأة الحلال الطيِّبة فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يُصبِح، والمرأة تقومُ من عند زوجها حَلالاً طيِّبًا، فتأتي رجلاً خبيثًا فتبيت عنده حتى تصبح.

6- وأتى على رجلٍ قد جمَع حزمةً عظيمة لا يستطيعُ حملَها، وهو يزيدُ عليها، فقال: ((ما هذا يا جبريل؟))، قال: هذا ا الرجل من أمَّتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريدُ أنْ يحمل عليها.

7- وأتى على خشبةٍ منصوبة على الطريق لا يمرُّ بها ثوب إلا شقَّتْه، ولا شيء إلا خرقَتْه، فقال: ((ما هذا يا جبريل؟)) قال: هذا مثل أقوامٍ من أمَّتك يَقعُدون على

---

[60] تكسر وتهشم.

[61] لا ينقطع عنهم هذا التعذيب.

[62] جمع قُبُل العورة الأماميَّة.

[63] الضريع: شجرٌ ذو شوك من أخبث الطعام وأضرّه، والزقوم: شجرةٌ تنبت في النار كريهة المنظر، مرَّة الطعم، وهي طعام أهل النار، رضف جهنم: حجارتها المحماة جمع رضفة كتمر وثمرة.

[64] وما أصدق التطابُق بين المثل والممثَّل له، فقد ظنَّ ما نعلوا الزكاة وكانزو الأموال أنها ستكونُ لهم سترًا وجاهًا، فإذا بها عري وفضيحة، وقصدوا أن} يملؤوا بها بطونهم وخَزائنهم فإذا هي ضريع وزقوم وحميم يقطع أمعاءهم، ويفسد عليهم طعامهم وشرابهم.

[65] نيء: على وزن حمل، و(ني) عامي.

الطريق فيقطعونها[66]، ثم تلا قول الحق - تبارك وتعالى -: {وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [الأعراف: 86].

8- وأتى على قومٍ تُقرَض ألسنتهم وشِفاههم بمقاريض من حديدٍ كلَّما قرضت عادَتْ كما كانت لا يُفتَّر عنهم من ذلك شيءٌ، فقال: ((ما هذا يا جبريل؟)) قال: هؤلاء خُطَباء الفتنة.

9- وأتى على منظر عجيب، ثقب صغير يخرج منه ثورٌ عظيم يريد أنْ يدخُل من حيث خرَج فلا يستطيع فقال: ((ما هذا يا جبريل؟)) قال: هذا الرجل يتكلَّم بالكلمة العظيمة ثم يندَمُ عليها فلا يستطيع أنْ يردَّها.

10- ومرَّ على قومٍ بُطونهم أمثال البيوت لضَخامتها، كلَّما نهض أحدُهم خَرَّ، فقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن هؤلاء يا جبريل؟)) فقال: هم آكِلُو الربا، ومِصداق ذلك من كتاب الله - تعالى -: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} [البقرة: 275].

11- ومَرَّ على قومٍ مَشافِرهم[67] كالإبل يلتَقِمُون حجرًا فيخرج من أسافلهم، فقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن هؤلاء يا جبريل؟)) فقال: هؤلاء أكَلَة أموال اليتامى ظُلمًا، ومِصداق ذلك من كتاب الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: 10].

ألا ما أروع المشهد، وما أدقَّ التصوير، وما أنبل الغرض، وما أوفى العِبرة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37].

المعراج

وقفتُ بك - أيُّها القارئ الكريم - عند انتِهاء النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - من الصلاة بالأنبياء في المسجد الأقصى، وبذلك تَمَّ الإسراء وبدأ المعراج.

وهنالك في هذه البُقعة المباركة التي هي مثابة الأنبياء ومهاجرهم، وأولى القِبلتين، وثاني المسجدين، عُرِجَ بالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ومعه صاحبه جبريل حتى وصَلا إلى أوَّل سماءٍ فاستفتح جبريل فقيل له: مَن أنت؟ قال: جبريل قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعمَ المجيءُ جاء، ثم فتح لهما فإذا آدم - عليه السلام - فقال جبريل: هذا أبوك أدم فسلِّمْ عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ السلام ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح، وهكذا كلَّما وصَلا إلى سماءٍ أخرى، استفتح جبريل، وحصل السؤال بمثل ما حدَث في السماء الأولى: فيؤذن لهما بالدُّخول والصُّعود.

---

[66] يعني: بإيذاء المارَّة بألسنتهم وجوارحهم وصدِّهم عن طرق الخير.

[67] شفاههم كمشافر الإبل؛ أي: شفاهها في الغلظ والتقرُّح.

فوجدا في السماء الثانية السيِّد الحصور يحيى بن زكريا، وكلمة الله عيسى ابن مريم - عليهما السلام.
وفي السماء الثالثة مَن أُعطِي شطرَ الحسن، يوسف - عليه السلام.
وفي السماء الرابعة مَن كان صِدِّيقًا نبيًّا، ورفَعَه الله مكانًا عَلِيًّا، إدريس - عليه السلام.
وفي السماء الخامسة مَن جعله الله وزير صدق لأخيه، هارون - عليه السلام.
وفي السماء السادسة كليم الله موسى - عليه السلام.
وفي السماء السابعة خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام.
وهنالك رُفِعَ للنبي البيت المعمور، وهو بيتٌ في السماء يدخُله كلَّ يومٍ سبعون ألف ملكٍ لا يعودون إليه أبدًا.
ثم عرج النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى سِدرة المُنتَهى، وقد غشيها من جَلال الله، وعجيب خلقه ما غشيها، فما يستطيعُ أحدٌ من خلْق الله، مهما أُوتِي من بيانٍ أنْ ينعَتَها من حُسنها وبديع صُنعها.
وهنالك عند سِدرة المُنتَهى انتهى جبريل إلى مَقامه المعلوم، ثم عرج بالنبي صاحب المقام المحمود، في أجواءٍ من الأنوار، وسبحات من الجلال والجمال والكمال، وفضاء لا يعلم مَداه إلا علاَّم الغُيوب، حتى ارتقى إلى مُستوى سمع فيه صَريف[68] أقلام الملائكة الكِرام، وهنالك أراه ما أراه من آياته الكبرى، وأوحى إلى عبده ونجيِّه محمد ما أوحى، وفرَض عليه وعلى أمَّته خمسين صلاةً في اليوم والليلة، فرجع الحبيبُ ومرَّ على موسى الكليم، فقال له: يا محمد، بِمَ أُمِرتَ؟ قال: ((بخمسين صلاة كلَّ يوم))، قال: إنَّ أمتك لا ستطيع ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل قبلَك، وعالجتهم على ما دون ذلك فما استطاعوا، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فرجع سيدنا محمد إلى ربه فسأله التخفيف، فوضَع عنه بعضَها، ثم عاد النبي ومرَّ على موسى، فقال له مثل مقالته الأولى، ولم يزل النبي يرجع بين موسى وبين ربِّه سائلاً التخفيف، حتى قال الحق - تبارك وتعالى -: يا محمد، إنهنَّ خمس صلوات في اليوم والليلة، وهن خمسون في الثواب، فنزل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - حتى انتهى إلى موسى - عليه السلام - فأخبره بمقالة الرب - جلَّ وعلا - فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال له السيد الحيي الرَّضِيُّ: ((سألت ربي حتى استحييت، ولكنْ أرضى وأسلِّم))، فلمَّا جاوَز ناداه الربُّ - جلَّ وعلا -: أمضيت فريضتي وخفَّفت عن عبادي.

[68] الصَّريف: صوت القلم، والمراد: الأقلام التي تكتُب بها الملائكة ما يَشاء الله من تدبيره في الأكوان.

ثم عاد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - محفوفًا بالإكرام والعِناية الربانيَّة، وعليه هالاتٌ من الجلال والتجلِّيات الإلهيَّة، حتى وصَل إلى بيت المقدس، وعاد إلى البلد الحرام، وهو في غايةٍ من السكينة والوَقار.

وبذلك تمَّت فصولُ قصة الإسراء والمعراج.

في صبيحة ليلة الإسراء والمعراج:

وفي صبيحة الليلة المشهورة الغرَّاء أخبَرَ رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - أمَّ هانئ بما جرَى، فقالت: يا رسول الله، لا تُحدِّث قومَك بهذا فيُكذِّبوك ويُؤذوك، فقال: ((والله لأُحدِّثنَّهم به))، فغدا إلى المسجد الحرام، فجاء إليه أبو جهلٍ، وهو جالسٌ يُفكِّر، فقال للنبي: هل من خبر؟ قال: ((نعم)) قال: وما هو؟ قال: ((أُسرِي بي الليلة)) قال: إلى أين؟ قال: ((إلى بيت المقدس)) قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: ((نعم)) قال: أرأيت إنْ دعوت قومَك أتحدِّثهم بما حدَّثتني به؟ فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((نعم))، فصار أبو جهل ينادي بُطون قريش، فأقبلوا، فقصَّ عليهم رسول الله القصة، فصاروا ما بين مُصفِّق وواضع يده على رأسه تعجُّبًا، وارتدَّ جماعةٌ من ضُعَفاء الإيمان، وصار حديث الإسراء مَشغَلة المجتمع القرشي في كلِّ مجلسٍ ونادٍ.

وسعى رجالٌ إلى سيِّدنا أبي بكر - رضِي الله عنه - يُخبِرونه، فقال كلمة الإيمان: لئنْ كان قد قال ذلك لقد صدَق، فقالوا له: أتُصدِّقه على ذلك؟ قال: إني لأُصدِّقه على أبعد من هذا، أُصدِّقه على خبر السماء[69].

فسُمِّي أبو بكر - رضي الله عنه وأرْضاه - من ذلك اليوم صِدِّيقًا.

الاختبار

وجاء دور الاختبار، وكان الكثيرون من المشركين يعرفون بيتَ المقدس وأوصافه؛ لكثْرة تردُّدهم عليه في تجاراتهم وأسفارهم، فسألوا النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - عن أوصاف المسجد الأقصى، ولم يكن النبي رآه إلا في هذه الليلة، وقد كان في شُغل شاغل عن الإحاطة بالوصف، والواحد منَّا قد يغشى مسجدَ الحيِّ طِيلة عُمره، ومع هذا تسأله عن أساطينه أو شَبابيكه فلا يدري، فلا عجب إذا كان النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قد كرب كربًا شديدًا لم يكرب مثله قطُّ، ولكنَّ الله الذي أسرى به، ورفَعَه فوق السبع الطِّباق، وأيَّدَه بروحٍ منه أزالَ الحجب والموانع، وجلاَّه له حتى صار مَرئيًّا له فجعل يَنظُر إليه ويصفه لهم بابًا بابًا وموضعًا موضعًا، فبهتوا وقالوا: أمَّا الوصف فقد أصاب.

---

[69] يريد - رضِي الله عنه - مجيء جبريل - عليه السلام - بالوحي من السماء في زمن وجيز من ليلٍ أو نهار.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما[70] أنَّ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال - وهذا لفظ البخاري -: ((لَمَّا كذبتني قريش قُمتُ في الحجر فجلَّى الله لي بيت المقدس[71] فطفقت أُخبِرهم عن آياته وأنا أنظُر إليه)).

وأخبرهم أيضًا بأماراتٍ في الطريق تشهَدُ بصِدقه: أخبرهم أنَّه مرَّ بِعِير بني فلان بِوادي كذا فأنفرها حس الدابة[72]، فندَّ لهم بعيرٌ فدللتُهم عليه وأنا مُتوجِّه إلى الشام، ثم رجعت حتى إذا كنت بصحنان[73] مررت بِعِير بني فلان فوجدت القوم نِيامًا، ولهم إناءٌ فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غِطاءَه وشربت ما فيه، ثم غطَّيت عليه كما كان، وأخبرهم أنها تقدم يوم كذا مع طُلوع الشمس يقدمها جملٌ أورق[74]، فما وافَى اليوم حتى خرجوا يشتدُّون نحو مدخل مكَّة.

فقال قائلٌ: هذه والله الشمس قد أشرقت، فقال الآخَر: وهذه والله العِير قد أقبلت، وقد استفسَرُوا من أصحاب العِير عن الإناء فصدَّقوا ما قاله النبي.

وبعد كلِّ هذه الآيات البيِّنات، والشواهد المحسوسات، لم يَزدَدِ القوم إلا كُفرًا وعِنادًا، وصدَق الله {فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور} [الحج: 46]، {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد: 33].

صلاة جبريل بالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -:

وفي غَداة اليوم التالي لليلة الإسراء والمعراج جاء جبريل إلى النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يُعلِّمه كيفيَّة الصلاة، ويُبيِّن له أوقاتها، فما إنْ زالت الشمس حتى أمَر رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فنُودِي بأصحابه فاجتمعوا وصلَّى به جبريل عند

---

[70] "صحيح البخاري" ج 5 صر 66، "صحيح مسلم بشرح النووي" ج 2 ص 237.

[71] الظاهر أنَّه جلاَّه له من غير انتقال، وأنَّه أزال له الحجب والموانع حتى كأنَّه ماثِلٌ أمامَه، ولا أدرى كيف يستبعد البعض مثلَ هذه المعجزة وقد توصَّل العقل البشري قي عصرنا إلى اختراع "التليفزيون" فيرى الرائي فيه صورةَ أيِّ شيء، حتى ولو كان بينهما آلاف الأميال، فإذا توصَّل الإنسان - على قُصوره - إلى هذا، أفنستَبعِدُ هذه المعجزة على قُدرة صانع البشَر وخالق القُوى والقُدَر، والعليم بما كان وما يكون؟!

ويشهد لذلك التوجيهِ ما رواه مسلمٌ في "صحيحه" بسنده عن أبي هريرة - رضِي الله عنه - قال: ((لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتْها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظُر إليه ما يسألوني عن شيءٍ إلا أنبأتهم به))؛ "مسلم بشرح النووي" ج2 ص 238.

وقيل: إنَّ الله أحضر له بيت المقدس حتى صار على مَقربة منه، وليس ذلك بعزيزٍ على الله؛ فقد أحضر الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس أمام سليمان في أسرع من لَمْحِ العين كما حكَى ذلك القرآن الذي لا يتطرَّق إليه شك أو ارتياب.

[72] هو صوت سرعة سيرها.

[73] موضع.

[74] لونه رمادي.

البيت: النبي يقتدي بجبريل، والمسلمون يقتدون بالنبي من ظُهر هذا اليوم إلى فجر اليوم التالي.
وفي "صحيح مسلم" عن أبي مسعودٍ البدري قال: سمعت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((نزَل جبريل فأمَّني فصلَّيت معه، ثم صلَّيت معه، ثم صلَّيت معه، ثم صلَّيت معه، ثم صلَّيت معه)) يحسب بأصابعه خمس صلوات.
وقيل: إنَّ جبريل - عليه السلام - صلَّى بالنبيِّ يومين متتاليين ليُبيِّن له الوقتين الأول والآخر لكل صلاة.
رُوِي عن ابن عباس وجابر أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((أمَّني جبريل عند البيت مرَّتين)).
ومن هذه الليلة صارت الصلاة فرضًا موقوتًا على كلِّ مسلم ومسلمة، ورُكنًا من أركان الإسلام تشهَدُ لِمُؤدِّيها بالإخلاص والمواظِب عليها في أوقاتها بطَهارة القلب، واستِقامة السُّلوك، وصَلاح الأحوال.
فلله أنت يا ليلة الإسراء والمعراج، فلو لم يكن لك من الفضل والمنزلة إلا فرض الصلوات الخمس لكفى.

توضيحات وتعليقات

في بعض ما ذكَرته من رِواياتٍ وما سرَدته من قصَّة الإسراء والمعراج ما يحتاجُ إلى شيءٍ من التوضيح، وإزالة الإبهام، ورفْع الإشكال، وما هو في حاجةٍ إلى تبيان الحكمة، وكشْف اللثام عن الأسرار، وفي الحق أنَّ الكثير ممَّا عرضت له قد سُئِلت عنه من كثير من الناس، بل أذكُر أنِّي كنت أُحاضِر في الإسراء والمعراج في بلدتنا "منية جناح"[75] من قُرابة عشرين عامًا، فسُئِلت عن بعضها لا من المثقَّفين فحسب بل ومن عوام الناس.
وقد سرَّني أنَّ بعضَ إخواننا الفلاحين كانت تصدر منهم هذه الأسئلة التي تنمُّ عن ذكاءٍ فطري، وصَفاء نفسي، وتديُّن أصيل في هذا الشعب الكريم:

-1-

قد يستَشكِل بعض الناس وجود الأنبياء الذين لقيهم النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في السماوات مع أنَّ أجسادهم - غير عيسى، عليه السلام - في الأرض.
وللجواب عن هذا نقولُ: إنَّ أرواح الأنبياء في أعلى عليين، فيجوزُ أنْ تكون أرواحهم تشكَّلت بصورة أجسادهم؛ تشريفًا وتكريمًا للقاء القادم الكريم، ويجوزُ أنْ يكونوا بُعِثُوا من قبورهم وحلَّت أرواحهم في أجسامهم استعدادًا للقاء النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ثم عادت أجسامهم إلى قُبورهم، وبقيت أرْواحهم في مُستقرِّها من

[75] هي قرية على سيف نهر النيل فرع رشيد، كانت تتبع قديمًا مديرية الغربيَّة والآن تتبع محافظة "كفر الشيخ".

السماء، ولا تستَكثِر شيئًا على قُدرة الله - سبحانه - وليكنْ في عقلك فسحة لهذا وأمثاله.

ومثل هذا يُقال أيضًا في اجتماعهم بالنبيِّ ببيت المقدِس وصَلاته بهم وثَنائهم على ربِّهم، والذي أميلُ إليه هو التوجيه الأول، وتشكُّل الأرْواح بصُورة الأجساد أمرٌ غير مُستَغرَب ولعلك على ذُكرٍ ممَّا ذكَرْناه لك سابقًا عن الإمام ابن القيِّم من وُجود الارتباط القويِّ بين أرواح النبيين وأجسادهم، وأنهم بهذا الارتِباط يكون منهم بعض التصرُّفات التي لا تكون إلا من الأحياء، ولله في ملكوته الذي لا يحيطُ به إلا هو آيات وعجائب، وما خَفِيَ علينا أكثر ممَّا علمنا، والليلة كانت مليئةً بالعجائب وخوارق العادات، وكل ما حدَّث به النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وصحَّ ثُبوته عنه فهو حقٌّ لا شكَّ فيه، وصدق الله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم: 11-12]، {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: 17-18].

-2-

قد يقول قائل: لِمَ أُسرِي بالنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى بيت المقدِس ثم عُرِجَ به من هُناك؟ ولِمَ لم يعرج به من مكَّة أشرف البِقاع وأحبِّها إلى الله؟

وقد أبان السرَّ في هذا الشيخ الإمام أبو محمد بن أبي جمرة في كتابه "بهجة النفوس"، فقال ما خُلاصته مع التوضيح: إنَّ الحكمة في الإسراء برسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى بيت المقدِس قبل العُروج به إلى السماء إقامة الحجة على المشركين والمتشكِّكين؛ لأنَّه لو عرج به من مكَّة إلى السماء لم يجدْ لِمُراغمة الكفَّار والضعفاء سبيلاً إلى إلزامهم بالحجَّة؛ إذ لا علم لهم بالعالم المعلوم حتى يسألوا عنه فيجيبهم بما يُقِيم عليهم الحجَّة، بخِلاف ما وقع بالفعل، فإنَّه لما ذكر أنَّه أُسرِي به إلى بيت المقدس سألوه أنْ يصف لهم بيت المقدس، وكانوا يعرفونه في تجاراتهم وأسفارهم، ويعلمون أيضًا أنَّ النبيَّ لم يكن رآه من قبلُ، فلمَّا أخبرهم بأوصافه كان ذلك أكبر آية على صِدقه فيما ذكَر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلةٍ ورُجوعه منه، وإذا تحقَّقوا صِدقه في الإسراء لزمهم تصديقه في بقيَّة ما ذكَرَه من المعراج ليؤمن من آمَن عن بيِّنة، ويَكفُر بعد قيام الحجَّة عليه.

أيضًا فإنَّ بيت المقدس مهاجر الأنبياء وأوَّل القبلتين، وثاني المسجدين المشرَّفين، فأراد الله أنْ يُشرِّف نبيَّه بالصلاة في البُقعتين المبارَكتين، وأنْ يَحُوز الفضيلتين.

ومن هذا البَيان والإفصاح عن السر يتبيَّن لنا الحكمة في اقتِصاره - صلَّى الله عليه وسلَّم - صبيحة ليلة الإسراء والمعراج على الإخبار بالإسراء دُون المعراج، هذا إلى ما فيه من الرِّفق بالسامعين، والتلطُّف بهم في قبول الغَرائب والخوارق، وذلك بالتدرُّج في الإعلام بذِكر الغريب ثم الأغرب.

ولعلَّ هذا هو السرُّ أيضًا في اقتصار الكتاب الكريم على ذِكر الإسراء تصريحًا؛ ففيه رفقٌ بالعباد ورحمةٌ بهم ألاَّ يخبرهم بالخوارق دفعةً واحدةً.

-3-

استشكل بعض الناس قول النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في حديث المعراج الذي سُقناه لك فيما سبق:

((ثم رُفِعتُ إلى سِدرة المُنتَهي، وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران؛ أمَّا الباطنان فنهران في الجنة، وأمَّا الظاهران فالنيل والفرات)).

ووجْه الاستشكال أنَّ ممَّا لا شكَّ فيه ولا ينبغي أنَّ يماري فيه إنسان عاقل أنَّ النيل والفرات ينبعان من الأرض لا من سِدرة المُنتَهى، وهذا أمرٌ بدهي.

وسأجيبُ عن ذلك بما يقنع العقل ويطمئن القلب، ويبيِّن أنَّ الحديث الشريف والعِلم مُتَوافِقان وأنَّ الاستشكال إنما جاء من فهْم الحديث فَهْمًا ظاهريًّا سطحيًّا، وإليك الجواب:

إنَّ هذه الليلة المباركة كانت حافلةً بضرْب الأمثال، وقد أرى الله فيها نبيَّه من الآيات والعِبَر ما أراه لحِكَمٍ وأسرار، وإشارات وتلويحات، فما ذُكِرَ في الحديث الشريف عن النيل والفرات واردٌ على سبيل التمثيل والتصوير، وأنَّ ما رآه النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - هو مثالٌ لهما، وذلك كما مُثِّلتْ له - صلَّى الله عليه وسلَّم - الجنَّة في عرض الحائط في غير هذا الحديث، وكما مُثِّلَ له أرواح الأنبياء وتشكَّلت بشكْل أجسامهم في هذه القصة، وكما مُثِّلَ له أرواح نسم المؤمنين وأرواح نسم الكفَّار عن يمين آدم وعن يساره في هذه القصة أيضًا.

كذلك مُثِّلَ له النيل والفرات قُرب سِدرة المُنتَهى فالذي رآه النبي عند السِّدرة هو صورتهما ومثالهما لا عينهما وحقيقتهما، وهذا الرأي قد أومَأ إليه بعضُ العلماء القُدامى الأجلاَّء، وهو ما أميلُ إليه وأرجِّحه، وأرى أنَّ الحديث لا ينبغي أنْ يُفسَّر إلا به، فإنَّ الله - سبحانه - قد أكثَر لنبيه في هذه الليلة من ضرْب الأمثال، وإراءته الآيات.

وقد يقول لي قائل: سلَّمنا لك ما تقول، ولكن ما السر في تمثيل هذين النهرين للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في هذه الليلة بالذات، وفي هذا المكان المبارك؟ وإليك الجواب:

إنَّ في تمثيل هذين النهرين في هذه الليلة سرًّا وأي سر، وهو ما فيه من رمزٍ وإشارة إلى أنَّ الله - سبحانه - سينجز لنبيه وعدَه، ويَفِي له بنصره، ويتمُّ عليه نعمته بأنْ يظهر دِينه على الأديان كلها، وسيفتح على أمَّته الأرض حتى تمتدَّ رُقعة الإسلام من النيل إلى الفرات، وهذا ما قد كان إذ لم يمضِ رُبع قرن بعد هذا حتى دخَل في الإسلام الأقطار من النيل إلى الفرات.

وليس من شكٍّ في أنَّ القلب الكبير وعَى كلَّ هذا وأكثر منه، وأنَّه علم ما فيه من البُشرَى له، والإيذان بأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكَرب {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: 5-6].

ولعلَّك على ذُكرٍ ممَّا صوَّرْناه لك من الظُّروف والملابسات، والحالة النفسيَّة المؤلمة التي كان يُعانِيها النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قُبَيل الإسراء والمعراج بسبب وُقوف القَوْم في وجْه الدعوة الإسلاميَّة، وصدهم الناس عنها، وإيغالهم في إيذاء الرسول والصحابة.

استطراد لازم:

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكَر فمن هذا القَبيل الحديث الذي رواه مسلم في "صحيحه" عن أبي هُرَيرة أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((أربعةُ أنهارٍ من الجنَّة: النيل والفرات، وسيحان وجيحان"، فهو مصروفٌ عن ظاهِره قطعًا بقرينة الحس والمشاهدة.

والحديث خرَج مخرج التشبيه والتمثيل، وأنَّ هذه الأنهار تُشبِه أنهارَ الجنة في عُذوبتها وكثْرة خَيْراتها، ونفعها للناس، وهو تأويلٌ مقبول ومُستساغ لغةً وشرعًا.

ومَن تتبَّع كلامَ العربِ في الجاهليَّة وصدْر الإسلام يجد من أمثال ذلك الشيء الكثير، وليس من البحث العلمي ولا من الإنصاف في شيءٍ إنكارُ مثل هذين الحديثين بادي الرأي بحجَّة المخالفة للحس والمشاهدة بعد ما تبيَّن من إمكان تفسيرها تفسيرًا مُستساغًا مقبولاً فإنهما مرويَّان في أصحِّ الكتب الحديثيَّة، ونحن لا ندَّعي العِصمة للبخاري ولا لمسلمٍ - رحمها الله - ولكنَّا نقول: إنَّ مَن اطَّلع على شرْط هذين الإمامين في الرواية مِن اشتراط العَدالة والضَّبط واتِّصال السَّنَدِ، ومعرفتهما أحوال رُواة الحديث ظاهرًا وباطنًا، وتحرّيهما في ذلك غاية التحرّي مع شُفوف النظر، وسَعة العلم، ودقَّة النقد - يكادُ يجزم بصحَّة ما روياه، وهذا أمرٌ يُؤمِن به مَن زاوَل كتب هؤلاء العُلَماء، وعاش معهم، وأطال صُحبتهم، وأخَذ نفسَه بما أخَذُوا به أنفسهم.

-4-

قد يقول قائل: ما السرُّ في وُجود الأنبياء الذين ذكَرَتْهم الروايات في السماوات على هذا الترتيب؟ ولِمَ اقتَصرَ على هؤلاء دُون غيرهم؟

وقد كَفانا الجواب عن هذا الإمامُ السُّهيلي فقال ما مُلخَّصه - مع التوضيح -: الحِكمةُ في الاقتِصار على هؤلاء المذكورين من الأنبياء في الحديث الإشارةُ إلى ما سيَقَعُ له - صلَّى الله عليه وسلَّم - مع قومه من نظير ما وقَع لكلٍّ منهم.

فأمَّا آدم فوقَع التنبيهُ بما وقَع له من الخروج من الجنَّة إلى الأرض بما سيقَعُ للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصَل لكلٍّ منهما

من المشقَّة وكراهية فِراق ما ألفه من الوطن، ثم كان مَآلُ كلٍّ منهما أنْ يرجع إلى وطنه الذي أُخرِجَ منه مُكرَّمًا مُعزَّزًا.

وأمَّا عيسى ويحيى - عليهما السلام - فالتنبيه على ما وقَع له من أوَّل الهجرة من عَداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم وصول السوء إليه بل وهمهم بقتله فكانت النتيجة أنْ أنجاه الله من مكرهم، ونصَرَه عليهم وردَّ كيدهم في نحورهم، كما أنجى عيسي - عليه السلام - من قبلُ منهم حينما عزَمُوا على قتْله فرفَعَه إليه وطهَّرَه من رِجسهم.

وأمَّا يوسف - عليه السلام - فقد نبَّه بما وقَع له من إخْوته وكيدهم له على ما وقَع للنبيِّ من قريش في عَداوتهم له، وإرادتهم هَلاكه، وتفنُّنهم في الكيد له، من غير أنْ يكون لذلك داعٍ، إلا أنَّ الله عصمَه بفضلٍ منه ورحمة وكانت العاقبة لنبيِّنا كما كانت ليوسف - عليهما الصلاة والسلام.

وقد أشار النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى ذلك يومَ فتح مكة، وضربه مثلاً عاليًا في العفو حيث قال: أقول كما قال أخي يوسف: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 92].

وأمَّا إدريس - عليه السلام - فقد نبَّه بوجوده في سمائه على رفيع منزلة النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - عند ربِّه، وعُلوِّ شأنه، وأنَّ دِينه سيعلو ثم يعلو حتى يظهَرَ على الأديان كلِّها، كما رفَع الله نبيَّه إدريس من قبلُ مكانًا عليًّا؛ قال - سبحانه -: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} [مريم: 56-57].

وأمَّا هارون - عليه السلام - فقد نبَّه بوجوده في سمائه على أنَّ قومه رجعوا إلى محبَّته بعد أنْ آذوه ونالوا منه، وأصبح أثيرًا عند بني إسرائيل، وكذلك أنت يا محمد سيحبُّك قومك بعد أنْ قلوك، ويؤيِّدونك بعد أنْ عادوك.

وأمَّا موسي - عليه السلام - فقد نبَّه به على ما وقَع له من مُعالجة قومه أشد المعالجة كي يهتدوا، وإيذائهم له، وصبره على ذلك أعظمَ الصبر.

وكذلك أنت يا محمد ستجدُ في سبيل هِداية قومك عنتًا ومشقَّة، وسيُذِيقونك من صُنوف البَلاء ألوانًا، وسيُلحِقون بك من المثالب والمعايب ما أنت بريءٌ منه، وفي قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((رَحِمَ الله أخي موسى، لقد أُوذِي بأكثَر من هذا فصبر)) ما يُشِير إلى هذا المعنى، وفي الكتاب الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} [الأحزاب: 69].

وأنَّ إبراهيم - عليه السلام - فقد نبَّه بوُجوده في آخِر السماوات، واستناده إلى البيت المعمور، بما خُتِمَ له في أخِر عمره من النصر ودُخول مكَّة فاتحًا منتصرًا، مع

المبالغة في تعظيم البيت ورعاية حُرمته، وما أتَمَّ الله به عليه نِعمَته من إكمال الدِّين، وإقامة مناسك الحج، وحجهم البيت الحرام لا يُشارِكهم فيه أحدٌ من المشركين، وصدَق الله حيث يقول مُخاطِبًا المسلمين في حجَّة الوداع: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3].

ومن المناسبات اللطيفة أنْ يكون آدم أبو البشر في السماء الأولى، وإبراهيم أبو العرب وجدُّ النبي الأعلى في السماء السابعة، فبُدِئت السماوات بأبي البشر، وختمت بأبي العرب.

وأيضًا فلعلَّ في وجود الخليل - عليه السلام - في السماء السابعة إيناسًا للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في هذا الموقف الذي زجَّ به فيه فريدًا وحيدًا، فكان على مقربة منه جده إبراهيم وذلك على ما هو المعهود عند البشر من الأنس بالقريب الحبيب[76].

[76] "فتح الباري" ج 7 ص 166، 167 ط البهية.

قيل: إنَّ الحكمة في فرْض الصلاة ليلةَ الإسراء والمعراج أنَّ النبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - لَمَّا عرج به إلى السماوات رآها تَمُوج بأصْناف الملائكة الكِرام الذين لا يُحصِيهم إلا الله - سبحانه -: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} [المدثر: 31]، ورأى من عِبادتهم أمرًا عجبًا، فمنهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يرفَع رأسه، فجمَع الله له ولأمَّته تلك العبادات كلها في كلِّ ركعة يُصلِّيها العبدُ بشَرائطها من الطمأنينة والإخلاص والخشوع، وهذا شيءٌ وإنْ كان سبَق به القضاء الأزَلي إلا أنَّ الله - سبحانه - أظهَرَه بعد وجود ما يقتَضِيه، وفي اختِصاص فرْض الصلاة بهذه الليلة وكونها من غير وساطة بل بكلام الله من وَراء حجاب تشريفٌ لها وبَيانٌ لعظم مكانتها في الإسلام.

هل رأى النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ربَّه ليلة المعراج؟

هذا البحث من المباحث التي اختَلفتْ فيها أنْظار العُلَماء قديمًا وحديثًا، فمن مُثبِتٍ للرؤية، ومن نافٍ لها، والبعض توقَّفَ في المسألة ولم يُدْلِ برأي فيها؛ وذلك لتعارُض الأدلَّة واختلاف الروايات في ذلك.

وها أنذا أُحاوِل تجليةَ هذا الموضوع وبَيان الحقِّ فيه معتمدًا على ما ثبَت من الروايات، وموفقًا بين ما ظاهِرُه التعارُض منها؛ كي أصل إلى رأيٍ راجح تدعَمُه الأدلَّة.

وهذا الخِلاف تمتدُّ جُذوره إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - فمنهم مَن أثبت الرُّؤية ومنهم مَن نَفاها.

النافون للرؤية:

فذهبت السيِّدة عائشة وابن مسعود - رضِي الله عنهما - إلى إنْكار الرؤية في هذه الليلة، قال القاضي عياض: وإليه ذهَب جماعةٌ من المحدِّثين والمتكلِّمين.

وكانت عائشة تُنكِر على مَن يقول بالرؤية وتشتدُّ في الإنكار، روى الإمام مسلمٌ في "صحيحه" بسنده عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة[77] ثلاثٌ مَن تكلم بواحدةٍ منها فقد أعظم على الله الفرية قلت: ما هي؟ قالت: مَن زعَم أنَّ محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال: وكنت متكئًا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقلِ الله - عزَّ وجلَّ -: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير: 23]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: 13]؟! فقالت: أنا أوَّل هذه الأمَّة سأل رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - عن ذلك فقال: ((إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين))، رآه منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض، فقالت: أوَلم تسمع الله يقول: {لاَ تُدْرِكُهُ

[77] كُنية مسروق.

الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 103]، وأنَّ الله يقول: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى: 51].

قالت: ومَن زعَم أنَّ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - كتَم شيئًا من كتاب الله فقد أعظَمَ على الله الفِرية والله يقول: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [المائدة: 67].

قالت: ومَن زعم أنَّه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ} [النمل: 65].

فالسيدة عائشة اعتَمدَتْ في إنْكارها على أنَّ آية التكوير وآية النجم المراد بهما أنَّ المرئيَّ جبريل لا الله - سبحانه - اعتمادًا على إخبار رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - لها بذلك، وكذلك كان ابن مسعود يرى أنَّ المرئيَّ هو جبريل - عليه السلام.

واعتمدت أيضًا على فهمها واجتهادها في الآيتين الأُخريَيْن.

أمَّا ما ذهبت إليه من أنَّ آية التكوير والنجم في رؤية النبيِّ لجبريل فهذا ما لا نُنازِعها فيه؛ لأنَّ عائشة اعتمدت في ذلك على ما سمعَتْه من رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وما دامت الرواية صحَّت عن المعصوم - صلَّى الله عليه وسلَّم - فلا كلام لأحدٍ مع كلامه.

وليس الأمر كما زعَم بعض العلماء من أنَّ عائشة اعتَمدتْ على فهْمها واجتهادها في الآيتين؛ لأنَّ رواية مسروق التي سُقناها صريحةٌ كلَّ الصراحة في سَماعها ذلك من رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا استدلالها بآية الأنعام: {لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...} وأية الشورى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ...} المسابقتين فالظاهر أنَّ هذا باجتهادٍ منها على حسَب ما فهمَتْه.

وفي الحقّ أنَّ الآيتين لا تدلاَّن على نفْي الرؤية، وإليك البيان:

أمَّا الآية الأولى فلأنَّ الإدراك معناه الإحاطة كما تدلُّ عليه اللغة في الكتاب الكريم: {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: 61] ونفْي الإحاطة لا يلزَمُ منه نفْي الرُّؤية بدُون إحاطة، فظهر أنَّ الآية لا تصلح دليلاً لِمَن يَنفِي الرُّؤية.

وكان ابن عباس يُؤوِّل هذه الآية على نحو ما ذكرناه، أخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عِكرمة عن ابن عبَّاس قال: "رأى محمَّد ربه" قلت: أليس الله يقول: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...} [الأنعام: 103] الآية قال: "ويحك! ذاك إذا تجلَّى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربَّه مرتين".

وأمَّا الآية الثانية: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ...} [الشورى: 51] فلا تدلُّ على نفْي الرُّؤية أيضًا؛ لأنَّه لا يلزَمُ من الرؤية وجود الكلام مُقارنًا لها فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، والآية حصرت التكليم في هذه الثلاثة: إمَّا الوحي وهو الإلهام أو المنام، وإمَّا

من وراء حجاب؛ أي: بدون وساطة، وإمَّا بإرسال رسولٍ وهو جبريل، والرؤية بدون كلام وراء هذه الثلاثة، وبذلك ظهَر أنَّ الآية لا تَنفِي حُصول الرؤية، هذا إلى أنَّ رؤية الله في الدنيا جائزة، وسؤال موسى - عليه السلام - ربَّه إيَّاها دليلٌ على الجواز؛ إذ لا يجهَلُ نبيٌّ ما يجوزُ أو يمتنع على الله - سبحانه - وهي مع كونها جائزةً فلم تقَع لأحدٍ في الدنيا إلا لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه.

القائلون بالرؤية:

وذهَب جماعةٌ من السَّلَف إلى إثبات رؤية النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - لربِّه ليلةَ المعراج؛ منهم ابن عباس، وسائر أصحابه، ومنهم عروة ابن الزبير وكان يشتدُّ ويغضب إذا ذُكِر له إنكار السيدة عائشة - رضي الله عنها.

وحكى عبدالرزاق عن معمر عن الحسن البصري "أنَّ محمدًا رأى ربه"، وبه جزَم الزهري، وهو قول الإمام الأشعري والإمام أحمد.

أمَّا الروايات عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد جاء بعضُها مطلقًا وبعضها مُقيَّدًا برُؤية القلب والفؤاد، فينبغي حملُ الروايات المطلقة على المقيَّدة[78].

[78] "فتح الباري" ج8 ص 469.

الروايات المطلقة:

في ذلك ما أخرَجَه النسائي بإسنادٍ صحيح وصحَّحه الحاكم أيضًا من طريق عِكرمة عن ابن عباس قال: "أتعجبون أنْ تكون الخلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد" عليهم الصلاة والسلام، وأخرجه ابن خزيمة بلفظ: "إنَّ الله اصطَفَى إبراهيم بالخلَّة، وموسى بالكلام، ومحمدًا بالرؤية".

الروايات المقيدة:

ومن الروايات المقيدة ما أخرجه مسلم في "صحيحه" بسنده عن ابن عباس في قوله - تعالى -: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: 11]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: 13]، قال: رآه بفُؤاده مرَّتين؛ أي: إنَّ المراد بالرؤية في هاتين الآيتين رؤية النبيِّ ربَّه - عزَّ وجلَّ - مرتين: ومعنى قوله: {نزلة أخرى} على رأي ابن عباس أنَّه كان للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - عرجات في تلك الليلة لأجْل التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكلِّ عرجة نزلة، فرأى ربه في بعضها[79].

وأصرَحُ من ذلك ما رواه ابن مردويه من طريق عَطاء عن ابن عباسٍ قال: "لم يره رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - بعينه، إنما رآه بقلبه".

وعلى ذلك فيكون التحقيق الذي لا محيص منه أنَّ رأي ابن عباس في الرؤية إنما هي بالقلب لا بالبصَر، وأمَّا كونها بالبصر فلم يثبتْ عنه ذلك ولا عن غيره من الصحابة، قال العلامة ابن كثير في "تفسيره" ج8 ص 101 بعدما ساق رواية مسلم عن ابن عباس: "وفي روايةٍ عنه أنَّه أطلق الرؤية، وهي محمولةٌ على المقيَّدة بالفؤاد، ومَن روي عنه بالبصر فقد أغرب؛ فإنه لا يصحُّ في ذلك شيءٌ عن الصحابة - رضِي الله عنهم - وقول البغوي في "تفسيره": وذهبت جماعةٌ إلى أنَّه رآه بعينه - وهو قول أنس والحسن وعِكرمة - وفيه نظر، والله أعلم".

وقد نفى العلامة ابن قيم الجوزيَّة عن الإمام أحمد أنَّه قال: "رآه بعينَيْ رأسِه"، وقال: إنَّ مَن حكى ذلك عنه فقد غلط، قال ابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيميَّة: "ولكن لم يقلْ أحمد - رحمه الله تعالى - أنَّه رآه بعيني رأسه يقظةً، ومَن حكَى عنه ذلك فقد وَهِمَ، ولكن قال مرَّة: رآه، ومرَّة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرُّف بعض أصحابه أنَّه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودةٌ ليس فيها ذلك"[80].

---

[79] وأمَّا على رأي السيدة عائشة فمعنى {نزلة أخرى}: مرَّة أخرى؛ وذلك لأنَّ النبيَّ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين: مرَّة وهو نازل من غار حراء، ومرَّة بالسماء ليلة المعراج عند سِدرة المُنتَهى.

[80] "زاد المعاد في هدي خير العباد" ج2 ص 48.

وممَّا يُؤيِّد أنَّ الرؤية البصريَّة لم تقعْ ما رواه مسلمٌ بسنده عن أبي ذرٍّ قال: سألت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: هل رأيت ربَّك؟ قال: "نورٌ أنَّى أراه"؛ أي: حالَ بيني وبين رُؤيته النور الذي هو حِجابه، فكيف أراه! وفي روايةٍ أخرى "رأيت نورًا".

وأصرَحُ من ذلك في الدلالة على أنَّ الرؤية هي القلبيَّة ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت ربَّك؟ قال: ((رأيته بفُؤادي مرَّتين))، ثم قرأ: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: 11].

وروى ابن جرير بسنده عن محصن بن كعب عن بعض أصحاب النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربَّك؟ قال: ((لم أرَهْ بعيني ورأيته بفؤادي مرَّتين))، ثم تلا {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: 8] وهاتان الروايتان إنْ صحَّتا تكونان من أقْوى الأدلَّة لابن عباس فيما ذهَب إليه في تفسيره لآيتي النجم.

التوفيق بين المثبتين والنافين:

وإذا قد انتهَيْنا من استعراض الروايات وتحقيقها إلى أنَّ الثابت عن الصحابة وعلى رأسهم ابن عبَّاس إنما هي الرؤية القلبيَّة، فيمكننا التوفيق بين النافين والمثبتين بأنَّ مَن نفاها أراد الرؤية البصريَّة، ومَن أثبتَ يكون مُراده القلبيَّة، وتكون الرُّؤية القلبيَّة ليست محلَّ خِلاف.

معنى الروية القلبيَّة:

معنى الرؤية القلبيَّة أنْ يحصل لقلب النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - حالةٌ بها يرى الله - عزَّ وجلَّ - هذه الحالة مثْل قوَّة الإبصار المودعة في العين التي بها تُدرَك المبصرات وهذه الحالة القلبيَّة فوق العِلم والمعرفة.

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح" بعدما بيَّن أنَّ ما رُوِي عن ابن عباس محمولٌ على رؤية القلب ما نصه:

"وعلى هذا فيمكن الجمعُ بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأنْ يُحمَل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرَّد حُصول العلم؛ لأنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد مَن أثبت له أنَّه رآه بقلبه أنَّ الرؤية التي حصلت له خُلِقت في قلبه كما تُخلَق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يُشتَرط لها شيءٌ مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخلْقها في العين".

رأي ثالث:

وقد ذهَب بعضُ العلماء إلى التوقُّف في المسألة ورجَّحَه القرطبي في "المفهم شرح صحيح مسلم"، وعَزاه لجماعة من المحقِّقين، وقوَّاه بأنَّه ليس في الباب دليلٌ قاطع، وغاية ما استدلَّ به للطائفتين ظواهر مُتَعارِضة قابلة للتأويل، وليست المسألة من

العمليَّات فيُكتَفى فيها بالأدلة الظنيَّة، وإنما هي من المعتقدات فلا يُكتَفَى فيها إلا بالدليل القطعي.

وبعدُ، فهذه خُلاصة البحث في الرؤية، ولعلِّي أكون قد أصبتُ في تحقيق الآراء والتوفيق بينهما، وتكوين رأي يعتمد عليه في هذه المسألة الشائكة وما توفيقي إلا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب.

رؤية النبي لربِّه منامًا:

ويسوقنا هذا البحث في رؤية النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - لربِّه في اليقظة إلى البحث في رؤيته - صلَّى الله عليه وسلَّم - لربه مَنامًا، وهذه الثانية ثابتةٌ في الأحاديث رواها الإمام أحمد في "مسنده" والترمذي في "سننه" وقال: حديث حسن صحيح.

وإليك رواية الإمام أحمد في "مسنده" أسوقُها بطولها لما فيها من تجلِّيات إلهيَّة وعلم وأدب.

روى الإمام أحمد في "مسنده" بسنده عن مُعاذ - رضي الله عنه - قال: احتبس علينا رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ذات غَداة من صلاة الصبح حتى كِدنا نتراءَى قرْن الشمس، فخرَج - صلَّى الله عليه وسلَّم - سريعًا فثوَّب بالصلاة فصلى وتجوَّز في صلاته، فلمَّا سلَّم قال: ((كما أنتم))، ثم أقبل إلينا فقال: ((إنِّي قمتُ من الليل، فصلَّيت ما قُدِّرَ لي، فنعست في صَلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي - عزَّ وجلَّ - في أحسن صُورة [81] فقال: يا محمد، أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى[82]؟ قلت: لا أدري يا ربي - أعادها ثلاثًا - فرأيته وضَع كفَّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلَّى لي كلُّ شيء وعرفت فقال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات قال: وما الكفَّارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ والوضوء عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نِيام.

---

[81] هذا من أحاديث الصفات، وللعلماء فيها رأيان: رأي السلف: الإيمان بها كما وردت مع تفويض علم حقيقتها إلى الله وتنزيهه عن الظاهر المعروف لنا، ورأي الخلف: التأويل على حسب قواعد الشرع واللغة فيقولون في الصورة: الصفة التي تليقُ به من الكمال والحلال والجمال، وفي الكف والأنامل: أنَّ المراد به التجليات الإلهية التي بها يفيضُ القلب إيمانًا وعِلمًا ومعرفة، فالكلام من قبيل التمثيل بإظهار المعاني المعقولة في صور المحسوسات المعهودة، [والذي نراه ونعتقده أنْ نؤمن بهذه الصفات كما جاءت، ولا نُكيِّف ولا نمثِّل، وأنَّ الإيمان بها واجبٌ، ونرى صواب مذهب السلف من الصحابة والتابعين وممَّن بعدهم من أئمَّة الهدى؛ كالأئمة الأربعة والإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم- فمذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم، ولا خير في مخالفتهم] وهذا الكلام بين القوسين هو آخِر ما اعتقده المؤلف - رحمه الله - ورجع به إلى مذهب السلف في الصفات، و هو منقولٌ من كتابه "الإسرائيليات والموضوعات" [الناشر].

[82] هم الملائكة الكرام.

قال: سَلْ، قلت: اللهمَّ إنِّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأنْ تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنةً بقومٍ فتوفَّني غيرَ مفتون، وأسألك حبَّك، وحبَّ مَن يحبُّك، وحبَّ عمل يقربني إلى حبك)).

فهذه الرؤية إنما كانت منامًا، ومن جعلها يقظة فقد غلط.

قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - : ((إنها حق فادرسوها وتعلَّموها)).

نسأل الله - سبحانه - أنْ يرزُقنا شفاعة نبيِّه، وأنْ يُنضِّر وجوهنا بالنظَر إليه.

الإسراء والمعراج في شعر الشعراء:

لقد استلهم بعضُ الشعراء المسلمين السِّيرة النبويَّة، واستوحَوْا حوادثها ومواقفها المشرقة، فكان من ذلك قصائد شعريَّة تُعتَبر من عُيون الشعر العربي وأعذبه وأصدقه على مرِّ العصور والدهور، ومن هذه الأحداث التي سجَّلوها في قصائدهم (الإسراء والمعراج)، وسنكتفي من هذه القصائد بما يتَّصِل بموضوعنا الذي حلَّلناه غاية التحليل، ورأينا أنْ نختمه بهذه التُّحَفِ الأدبية، ولن أستوعب كلَّ ما قاله الأقدمون والمحدثون في هذا، فذلك شيءٌ يطول، ولكنِّي سأكتفي بشاعرين كبيرين من شعراء (المدائح النبوية) الذين سجلوا حوادث السيرة النبويَّة في ملاحم شعريَّة.

أحدهما قديم وهو الإمام البوصيري.

الثاني أمير شعراء العصر الأخير أحمد شوقي.

وإليك ما قاله الإمام البوصيري[83] - رحمه الله - في الإسراء والمعراج.

قال في (بردته) المشهورة:

يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العَافُونَ سَاحَتَهُ = سَعْيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ
وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الْكُبْرَى لَمُعْتَبِرٍ = وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ
سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ = كَمَا سَرَى البَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً = مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ
وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا = وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ = فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ العَلَمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْوًا لِمُسْتَبِقٍ = مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ = نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ العَلَمِ
كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَيِّ مُسْتَتِرٍ = عَنِ العُيُونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَتِمِ
فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ = وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

---

[83] هو الشاعر الصوفي شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، نسبةً إلى بوصير قرية من قُرَى بني سويف ولد عام 608هـ، وتوفي 695هـ بالإسكندرية، وقبره بها مشهور يُزار، وقد وقع الإجماع على أنَّ قصيدته البردة في مديح الرسول أفضل المدائح النبويَّة بعد قصيدة بانت سعاد ونحوها من مَدائح الصحابة.

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ = وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ
بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلاَمِ إِنَّ لَنَا = مِنَ العِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمِ
لَمَّا دَعَا اللهَ دَاعِينَا لَطَاعَتِهِ = بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

وقال - رحمه الله - في قصيدته "الهمزية" التي لا تقلُّ عن البردة جمالاً ورَوْعة، والتي تفيضُ إخْلاصًا وحُبًّا لصاحب الرسالة - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال:

فَصِفِ اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَ لِلْمُخْـ = ـتَارِ فِيهَا عَلَى البُرَاقِ اسْتِوَاءُ
وَتَرَقَّى بِهِ إِلَى قَابِ قَوْسَيْـ = ـنِ وَتِلْكَ السِّيَادَةُ القَعْسَاءُ[84]
رُتَبٌ تَسْقُطُ الأَمَانِيُّ حَسْرَى = دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ[85]
ثُمَّ وَافَى يُحَدِّثُ النَّاسَ شُكْرًا = إِذْ أَتَتْهُ مِنْ رَبِّهِ النَّعْمَاءُ
وَتَحَدَّى فَارْتَابَ كُلُّ مُرِيبٍ = أَوَيَبْقَى مَعَ السُّيُولِ الغُثَاءُ[86]
وَهْوَ يَدْعُو إِلَى الإِلَهِ وَإِنْ شَقْـ = ـقَ عَلَيْهِ كُفْرٌ بِهِ وَازْدِرَاءُ
وَيَدُلُّ الوَرَى عَلَى اللهِ بِالتَّوْ = حِيدِ وَهْوَ الْمَحَجَّةُ البَيْضَاءُ[87]
فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لاَنَتْ = صَخْرَةٌ مِنْ إِبَائِهِمْ صَمَّاءُ
وَاسْتَجَابَتْ لَهُ بِنَصْرٍ وَفَتْحٍ = بَعْدَ ذَاكَ الْخَضْرَاءُ وَالغَبْرَاءُ[88]

وقال أمير شُعَراء هذا العصر أحمد شوقي[89] - رحمه الله – في قصيدة (نهج البردة):

أَسْرَى بِكَ اللهُ لَيْلاً إِذْ مَلاَئِكُهُ = وَالرُّسْلُ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى عَلَى قَدَمِ[90]
لَمَّا خَطَرْتَ بِهِ التَفُّوا بِسَيِّدِهِمْ = كَالشُّهْبِ بِالبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ[91]

---

[84] المشهور في كتب الحديث والسير والتواريخ أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - لم يصعد بالبراق ولم يطأ به السماوات، بل ربَطَه في بيت المقدس بالحلقة التي كانت تربطه بها الأنبياء، ولم يزلْ مربوطًا حتى نزل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - من معراجه ثم ركبه وعاد به إلى مكة ، والقعساء: الثابتة الدائمة.

[85] يعنى: ما قدَّامهنَّ قدَّام، فوراء بمعنى قدام، والمعني: أنَّه ليس قدَّامهن مرتبةٌ أخرى يَطمَع مخلوقٌ في نيلها.

[86] فارتاب...؛ أي: عجز وانقطَع عن المعارضة كلُّ مُرتابٍ، والغثاء: ما يَحمِله السيل من هشيم النبات.

[87] المحجة البيضاء: الطريق إلى الله النيّرة المضيئة التي لا يضلُّ سالكها، ولا ينقَطِع فيها دون الوصول إلى غايته.

[88] الخضراء: السماء؛ لأنها في رأْي العين كذلك، والغبراء: الأرض، والمراد المبالغة في تمام النَّصر وعظم الفتح، حتى كأنَّه شمل السماء والأرض.

[89] هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي شوقي، كان جدُّه عربيًّا كرديًّا قدم إلى مصر وعاش وابنه وحفيده في ظلِّ الأسرة الحاكمة في هذا الوقت، وحظَوْا منه بقصائد رنَّانة، ولشوقي فضلٌ كبير في إحياء الأمجاد الإسلاميَّة، توفي عام 1932.

[90] على قدم قائمون محتشدون.

[91] خطرت به: مشيت به.

صَلَّى وَرَاءَكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ = وَمَنْ يَفُزْ بِحَبِيبِ اللهِ يَأْتَمِمِ[92]
جُبْتَ السَّمَاوَاتِ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ = عَلَى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُمِ[93]
رَكُوبَةً لَكَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ = لاَ فِي الجِيَادِ وَلاَ فِي الأَيْنُقِ الرُّسُمِ[94]
مَشِيئَةُ الْخَالِقِ البَارِي وَصَنْعَتُهُ = وَقُدْرَةُ اللهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالتُّهَمِ
حَتَّى بَلَغْتَ سَمَاءً لاَ يُطَارُ لَهَا = عَلَى جَنَاحٍ وَلاَ يُسْعَى عَلَى قَدَمِ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ = وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا العَرْشُ فَاسْتَلِمِ
خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا عُلُومَهُمَا = يَا قَارِئَ اللَّوْحِ بَلْ يَا لامِسَ القَلَمِ[95]
أَحَطْتَ بَيْنَهُمَا بِالسِّرِّ وَانْكَشَفَتْ = لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكَمِ
وَضَاعَفَ القُرْبُ مَا قُلِّدْتَ مِنْ مِنَنٍ = بِلاَ عِدَادٍ وَمَا طُوِّقْتَ مِنْ نِعَمِ

وقال في قصيدة (الهمزية) التي عارَض بها همزيَّة البوصيري:

يَا أَيُّهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرَفًا إِلَى = مَا لاَ تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجَوْزَاءُ[96]
يَتَسَاءَلُونَ وَأَنْتَ أَطْهَرُ هَيْكَلٍ = بِالرُّوحِ أَمْ بِالْهَيْكَلِ الإِسْرَاءُ
بِهِمَا سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْنِ كِلاَهُمَا = نُورٌ وَرَيْحَانِيَّةٌ وَبَهَاءُ
فَضْلٌ عَلَيْكَ لِذِي الْجَلاَلِ وَمِنَّةٌ = وَاللهُ يَفعَلُ مَا يَرَى وَيَشَاءُ[97]
تَغْشَى الغُيُوبَ مِنَ العَوَالِمِ كُلَّمَا = طُوِيَتْ سَمَاءٌ قُلِّدَتْكَ سَمَاءُ[98]
فِي كُلِّ مِنْطَقَةٍ حَوَاشِي نُورِهَا = نُونٌ وَأَنْتَ النُّقْطَةُ الزَّهْرَاءُ[99]
أَنْتَ الْجَمَالُ بِهَا وَأَنْتَ الْمُجْتَلَى = وَالْكَفُّ وَالْمِرْآةُ وَالْحَسْنَاءُ
اللهُ هَيَّأَ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِهِ = نُزُلاً لِذَاتِكَ لَمْ يَجُزْهُ عَلاَءُ[100]
الْعَرْشُ تَحْتَكَ سُدَّةً وَقَوَائِمًا = وَمَنَاكِبُ الرُّوحِ الأَمِينِ وِطَاءُ[101]
وَالرُّسْلُ دُونَ العَرْشِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ = حَاشَا لِغَيْرِكَ مَوْعِدٌ وَلِقَاءُ

* * * * *

---

[92] خطر: قدر ومنزلة، و"بحبيب الله" متعلِّق بيأتمم؛ يعني: ومَن يفز يأتم بحبيب الله.
[93] مراده البراق، وقد حقَّقنا آنفًا أنَّ المعراج لم يكنْ على البراق، والظاهر أنَّه تأثَّر بالبوصيري في هذا.
[94] الأيْنُق: جمع ناقة؛ وهي أنثي الجمال، الرسم: الشديدة الوطء لقوَّتها حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها آثارًا ظاهرة.
[95] كنايةٌ عن إطْلاع الله له - صلَّى الله عليه وسلَّم - على ما أطْلعه عليه من الغيوب.
[96] الجوزاء: برج في السماء.
[97] ما يري: ما يختار.
[98] المراد: إعلام الله - سبحانه وتعالى - لنبيه محمَّد ما شاء من عُلوم الغيب.
[99] يعني: أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - من النور والبهاء والجمال بمنزلة النقطة من حرف النون.
[100] حظيرة القدس: مكان القدس وهو الطُّهر وتطلق أيضا على الجنة النزل ما بعد للضيف.
[101] لم يثبتْ في الأحاديث الصحيحة أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - وطئ العرش أو علاه، وكل ما يثبت أنه جاوز سدرة المنتهى ولعله من خيال الشعراء أو أخذه من بعض الكتب التي لا تُعنَى بالتحقيق.

أمَل ورجاء

وبعدُ، فهذه قصَّة الإسراء والمعراج ذكرتُها كما استقَيْتُها من أصحِّ الأخبار وأوثَقِها وأجدَرِها بالقبول، وأمَلي ورجائي أنْ يتَّخِذَ منها الوعَّاظ والمرشِدون، والأئمَّة والخطباء، والمحاضرون والكاتبون - مادَّة خصبةً في وعْظ الناس وإرشادهم، وفي خُطَبِهم ومحاضراتهم، وأنْ يكفُّوا عن ذِكر القصص الذي لا سنَد له يصحُّ عند التحقيق، وإنَّ لنا في الثابت الصحيح ما يُغنِي عن التزيُّد والاختلاق.

هذا، وقد بذَلتُ في هذه (الرسالة) غايةَ جهدي حتى تأتي محرَّرة من كلِّ زيفٍ أو تزيُّد، وحرصت - ما استطعتُ - أنْ تكون بأسلوبٍ سهل مبسط مُستَساغ يجدُ فيه العالم المتخصِّص ما يُشبِع نهمه ويُرضِي غريزته، ويجدُ فيها الباحثُ ما يُسعِفه في البحث، ويجدُ فيها القارئ المتوسِّط ما يبصره بلونٍ من ألوان الثقافة الإسلاميَّة الصحيحة.

فإنْ كنتُ وافقت الصواب فبتوفيقٍ من الله وفضْل، والحقَّ أردتُ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكَّلت وإليه أُنِيب.

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمَّد نبيِّ الهدى والبرِّ والرحمة وعلى آله وصَحابته ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وكتبه

أبو رضا محمد محمد أبو شهبة

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	2
الفصل الأول: حاجة البشر إلى الرسل	3
الإنسان ليس عقلاً مجردًا	4
شعور الإنسان الفطري بحياة أخرى	4
العقل لا يكفي وحده	5
لا يمكن أنْ يفي بهذا الغرض إلا التشريع السماوي	5
الرسل مبلغون عن ربهم	5
من هم الرسل؟	6
ما هي المعجزة	7
المعجزة ليست من المستحيلات العقلية	8
المعجزة ليست من صنع الأنبياء	8
الفرق بين المعجزة والمخترعات	8
الفرق بين المعجزة والسِّحر	9
الفرق بين المعجزة والكرامة	9
معجزة الأنبياء وملاءمتها لأزمانها	9
المعجزة النبوية المحمدية	11
المعجزة الكبرى	11
المعجزات الحسية	12
المعجزات المحمدية منها ما تواتر ومنها ما لم يتواتر	14
المنكرون للمعجزات الحسية	16
الفصل الثاني: قُبَيل الإسراء والمعراج	18
توجُّهٌ إلى الله بالدعاء	19
في الإسراء والمعراج تسرية عن نفس الرسول	19
ما هو الإسراء والمعراج؟	20
ثبوت الإسراء والمعراج	21
الإسراء والمعراج بالجسد والروح	23
القائلون بأنهما كانا بالروح	23
القائلون بأنهما كان منامًا	24

الفرق بين كونهما بالروح وكونهما منامًا	24
الإسراء ووحدة الوجود	26
بطلان فكرة وحدة الوجود	27
متى كان الإسراء والمعراج	29
في أيِّ سنة وشهر كان الإسراء والمعراج	30
إمكان الإسراء والمعراج	30
الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج	33
رواية البخاري في صحيحه	34
رواية الإمام مسلم في صحيحه	37
رواية أخرى للإمام مسلم	38
قصة الإسراء والمعراج	39
ثناء الأنبياء على ربهم	41
ثناء الخليل	41
ثناء الكليم	41
ثناء داود	41
ثناء سليمان	41
ثناء عيسى	42
ثناء محمد	42
ما رآه النبي في مسراه	42
المعراج	45
في صبيحة ليلة الإسراء والمعراج	46
الاختبار	47
صلاة جبريل بالنبي - صلّى الله عليه وسلّم -	48
توضيحات وتعليقات	49
استطراد لازم	52
هل رأى النبي - صلّى الله عليه وسلّم - ربه ليلة المعراج	55
النافون للرؤية	55
القائلون بالرؤية	57
الروايات المطلقة	58
الروايات المقيدة	58
التوفيق بين المثبتين والنافين	59

معنى الرؤية القلبية	59
رأي ثالث	60
رؤية النبي لربه مَنامًا	60
الإسراء والمعراج في شعر الشعراء	61
أمل ورجاء	65